دروسٌ مِن غـزوة أُحُد

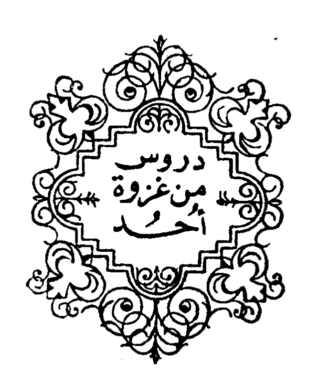
دكتور عَبْد العزيز كامِل

الطبعة الرابعة .



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .


دروس
من غزوة
أُحُد

كلمات

من خطبة الرسول عليه الصلاة والسلام يوم أُحد قبل المعركة :

أيها الناس :

- أوصيكم بما أوصانى به الله فى كتابه من العمل بطاعته والتناهى عن محارمه .
- إن جهادَ العدو شديدٌ كَرْبُهُ ، قليلٌ من يصبر عليه إلا من عزم الله له رُشده ؛ فإن الله مع من أطاعه . وإن الشيطان مع من عصاه .
- افتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد ، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله . وعليكم بالذى أمركم به ، فإنى حريص على رَشَدِكم .
- من كان على حرامٍ فَرَغِبَ عنه ، ابتغاء ما عند الله ، غَفَرَ الله له ذَنْبَه .
- ما أعلم من عمل يقرّبكم إلى الله إلا وقد أمرتُكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه .
- لن تموت نفس حتّى تستوفى أقصى رزقها . . . فاتقوا الله وأجملوا فى طلب الرزق . ولا يحملنكم استبطاؤُه أن تطلبوه بمعصية ربكم .
- والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجَسَد إذا اشتكى تداعى عليه سائر الجسد . والسلام عليكم .

كتاب المغازى للواقدى (١ : ٢٢١-٢٢٢)

مدخل



فهرست



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

هذه فصول كتبتها بعد نكسة ٥ يونيو ١٩٦٧ عندما استطاعت إسرائيل — بتأييد من الاستعمار العالمى — أن توقع بوطننا العربى والإسلامى وقضية السلام هزيمة سريعة عنيفة . حاولتُ فيها أن أدرس النكسة فى غزوة أحد ، ولها خصص ربنا ستين آية متتابعة من سورة آل عمران ، وارتبطت بها أحكام تتعلق بالأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية فى قاعدة الإسلام فى المدينة ، وبالنظرة العلمية الموضوعية إلى الأحداث ، وكيف أنها تسير على سنن وقوانين علينا أن نطلبها ونسلك السبيل إلى تعلمها ، وأن أحداث الحياة ليست مجموعة من المصادفات المتوالية أو التدفق العشوائى ، وإنما للنصر قوانين ، وللهزيمة قوانين . ومن الممكن أن ينهزم المسلمون فى حرب ولو كان فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ما خالفوا عن أمره وسلكوا غير سبيل النصر ، وأن لهم النصر على عدوهم وإن فاقهم عدداً وعدة إذا ما استطاعوا أن يرتفعوا إلى ما فوق فاعلية عدوهم إيماناً وعلماً وتنظيماً .

ولقد كنت أقرأ روائع هذه الغزوة ، فلم تكن تصل إلى المدى الذى وصل إليه آخر حِسّى بعد النكسة . ولكن المعاناة والارتباط بأرض

المعركة وأبعادها عقيدة وواقعاً ومصيراً فتح أمام عيني وقلبي وعقلي أبواباً من القول في كتاب « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد »[١]، دعانا ربنا إلى تدبره فقال : «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب »[٢] .

كنت هناك في سيناء قبل المعركة بأيام . وعشت مع شعبنا الوفي المؤمن ، ورأيت مدى إقباله على معركته المقدسة ، وكيف كان يستقبل الجنود الذاهبين إلى الجبهة ليلا ونهاراً على طول الطريق بقلبه قبل هتافه ، يقدم إليهم شراباً ساخناً أو تحية من طعام أو ورقة وقلماً يكتب عليها رسالة إلى أهله ، ودعاء أن يربط الله على قلوبهم في الميدان .

كان هناك جنود وضباط من أقطار العروبة جمعهم الإيمان والهدف والمصير من شرق وطننا العربي ومغربه وسودانه .

وعلى الطريق من القاهرة إلى خط القناة ، في القنطرة ، في العريش ، في اللقاءات الشعبية ، في الكلمات التي قيلت ، في الإيمان المتمثل في أجيال متلاحقة . شيوخ فوق السبعين ، شباب دون العشرين ، رجال ونساء من أهل المدن والريف والبادية . آمال ضخمة وحنين إلى استعادة حق واسترداد وطن . هيكل ضخم شادته الجهود الدائبة

---

(١) سورة فصلت : ٤٢ .

(٢) سورة ص : ٢٩ .

المخلصة وآلاف من الجنود المجهولين عصفت به الرياح السود العاتية فى صبيحة ٥ يونيو وأصبح فيه وطننا العربى – فى بعض أمره – كالأب الأول والنبى الأول – فى حاجة إلى درس من الله « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم »[1] .

كنا – كما كان الأب الأول – فى حاجة إلى درس من الله . . وبين أيدينا كتاب نقرأ فيه – فيما نقرأ – دروس أول نكسة أصيب بها المسلمون فى غزوة أحد .

(٢)

كانت غزوة أحد فى العام الثالث للهجرة حلقة من سلسلة الصراع المتصل بين قاعدة الإسلام فى المدينة والعداوات التى تلقاها من قريش واليهود ومن يتعاون معهم من منافقى المدينة ومن حولهم من الأعراب . من أجل ذلك لايمكن أن نفصلها عن الأحداث التى سبقتها والنتائج التى ترتبت عليها والسياسة التى اتبعها الرسول لإزالة آثار النكسة ، والانطلاق من قاعدة الإسلام لإقرار شريعة الحق بين الناس .

وأود أن أذكر ابتداء أن الرسول غزا سبعاً وعشرين غزوة فى عشر سنوات . وأن العمليات العسكرية الأخرى – السرايا – كانت

(١) سورة البقرة : ٣٧ .

سبعاً وأربعين[١]. وأن قاعدة الإسلام فى المدينة حاربت أكثر من عدو فى أكثر من جبهة . . وتعاقبت عليها انتصارات ونكسات ، ولاقت مؤامرات . واتخذ الله من زهرة أبنائها شهداء سالت دماؤهم فى حروب سافرة وفى مؤامرات غدر حيكت لهم فى الظلام . وحارب المسلمون ومعهم سلاح محدود أحياناً ، ووافر أحياناً . حاربوا وهم فى صحة وعافية ، وحاربوا أحياناً وهم جرحى ومرضى . . ولكنهم كانوا كما وصفهم ربهم بعد هذا : « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلّفوا عن رسول الله ولايرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولامخمصة فى سبيل الله ولايطئون موطئاً يغيظ الكفار ولاينالون من عدو نيلا إلاكتب لهم به عمل صالح إن الله لايضيع أجر المحسنين . ولاينفقون نفقة صغيرة ولاكبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون »[٢].

ووقفة عند هذه الآية ترينا أنواعاً من الجهد والألم كانت تمر بها قاعدة الإسلام : الظمأ ، التعب ، الجوع ، الحركة التى تغيظ الكفار ، البذل ، وما ينتزعونه من عدوهم ، ثم رد الأمر لله تعالى بعد بذل الجهد . .

لم تكن حياة الرسول فى المدينة مفروشة بالورد ، ولم تكن سلسلة من الانتصارات يعود الصحابة بعد كل منها لتلقاهم المدينة

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢ : ٥ – ٦
(٢) سورة التوبة : ١٢٠ – ١٢١

بالتكبير والتهليل . لم تكن حياة هادئة ، الدنيا فيها طوع أمرهم والأعداء يفرون بسهولة أمامهم . ولكنها كانت حياة كلها الكفاح والعرق والدم والتضحية والنصر والنكسة والتجربة العميقة التى يستفيدون منها وضوح رؤية وإصراراً على حق ، وتعديلا فى خطة وتجميعاً لقوة استعداداً لمعركة جديدة . وكل تجميع جديد كان يقابله رد فعل جديد عند الأعداء : استعداد أقوى وحرب شرسة وعدوان ظاهر أو خفى . ويلتقى الجمعان ويتساقط الشهداء ، وتعمق التجربة وتشتد المواقع .

قوة المسلمين فى بدر كانت فوق الثلثمائة بقليل ترتفع فى تبوك إلى ثلاثين ألفاً مع تطوير ضخم فى الأسلحة ، واستفادة من أسلحة العدو وعدته .

بعض حصون خيبر استطاع المسلمون فتحها بأسلحة أخذوها من حصون أخرى .

الخبرة التى استفادوها فى غزوة خيبر ضد اليهود استخدموها فى حصار الطائف بعد فتح مكة .

ولكن مع عمق التجربة وتفتحها ومع تنوع الأسلحة وتغيير الخطط ، ومع الشهداء والجرحى ومع المؤامرات الآثمة والأحلاف الشريرة التى كانت تعمل ضدهم ، ظلت حقيقة كبيرة ترتفع فوق كل هذا : هى حقيقة الإيمان العميق بالله تعالى .

الإيمان العميق بقداسة ما يعملون وبسنة الله فى خلقه « إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون »[١] ، وقوله تعالى : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس »[٢] ؛ وأنه بعد الصبر لابد من النصر إن شاء الله « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى »[٣] ، وقوله تعالى : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد »[٤] .

أم خلاد :

ولكن طريق النصر هو طريق الآلام . . أرضه شوك وسماؤه عواصف ، ومعالمه دماء الشهداء . .

على هذا بايع أصحاب الرسول ربهم وصدقوا ما عاهدوا الله عليه . ورحم الله ورضى عن الصحابية الجليلة أم خلاد عندما حضرت غزوة أحد مع زوجها وولدها وأخيها . واستشهد الزوج والولد والأخ ، وحملتهم الصحابية الجليلة على بعيرها ، ولقيتها عائشة أم المؤمنين فى طريق المدينة فقالت لها :

---

(١) سورة النساء : ١٠٤ .
(٢) سورة آل عمران : ١٤٠ .
(٣) سورة المجادلة : ٢١ .
(٤) سورة غافر : ٥١ .

ـ عندك الخبر فما وراءك .

قالت أم خلاد : أما رسول الله فصالح . وكل مصيبة بعده جلل (أى هينة) . واتخذ الله من المؤمنين شهداء . ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً (تشير إلى تراجع المشركين عن غزو قاعدة الإسلام فى المدينة والاكتفاء بمعركة خارجية عند جبل أحد) وكان الله قوياً عزيزاً .

قالت عائشة : من هؤلاء ؟ (تسأل عن الشهداء معها) .

قالت أم خلاد : أخى وابنى خلاد وزوجى عمرو بن الجموح .

قالت عائشة : فأين تذهبين بهم ؟

قالت : إلى المدينة أقبرهم فيها . .

ثم زجرت بعيرها ليتابع سيره فما استطاع . فلما وجهته إلى ميدان المعركة أسرع . ومكث الرسول حتى قبرهم (أى دفنهم) ثم قال :

ـ يا هند : ترافقوا فى الجنة : عمرو بن الجموح وابنك خلاد وأخوك عبد الله .

قالت أم خلاد : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى معهم[1].

---

(١) مغازى الواقدى ١ : ٢٦٤ — ٢٦٦ .

نسيبة الخزرجية :

وكانت أم عُمارة نسيبة الخزرجية قد شهدت أحداً هى وزوجها وابنها ومعها وعاء من جلد تسقّى منه الجرحى . فقاتلت وأحسنت القتال – وهى حاجزة ثوبها على وسطها – حتّى جرحت اثنى عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف : وذلك أنها كانت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم هى وأبناؤها عبد الله وحبيب ابنا زيد ابن عاصم ، وزوجها غزية بن عمرو يدافعون عن الرسول . فلما انهزم المسلمون جعلت تباشر القتال وتدافع عن رسول الله بالسيف وترمى بالقوس . ولما جاء ابن قميئة يريد قتل الرسول هاجمته نسيبة وأصابتها ضربة غائرة على عاتقها وضربته هى ضربات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان . وقال : ما التفتّ يميناً ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاتل دونى .

وقال لابنها عبد الله بن زيد : بارك الله عليكم من أهل بيت . مقام أمك خير من مقام فلان وفلان . ومقام ربيبك (أى زوج أمك) خير من مقام فلان وفلان . ومقامك خير من مقام فلان وفلان . رحمكم الله أهل بيت .

قالت أم عمارة : ادع الله أن نرافقك فى الجنة .

قال رسول الله : اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة .

قالت أم عمارة – رضى الله عنها وعن أهل بيتها – ما أبالى ما أصابنى من الدنيا[١].

كانت معركة أحد معركة قاسية اشترك فيها نساء المدينة ورجالها دفاعاً عن وطنهم . نساء من بيت النبى وبيوت الصحابة : عائشة أم المؤمنين ، فاطمة بنت النبى ، أم خلاد ، أم عمارة ، أم أيمن ، حمنة بنت جحش . . يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ويسقين الجرحى ويداوينهم ويشتركن فى القتال . .

وددت بهذه الصور السريعة أن أبين جانباً من ضراوة المعركة والصراع الرهيب الذى دار بين قاعدة الإسلام والمعتدين عليها من كفار قريش تدفعهم رغبتهم وأحقاد اليهود الذين زادوا من دفعهم إلى حرب الرسول – كل هذا لأؤكد حقيقة واحدة كبيرة :

أن الهزيمة لم تكن داخلية . .

نفوس الصحابة لم تهزم وإن كسبت قريش جولة فيها . بدا هذا واضحاً فى شدة الدفاع عن القاعدة وعن الرسول ، والجهود المشتركة بين رجال المدينة ونسائها فى الدفاع عن وطنهم ، فى ارتفاع المعركة إلى هذا المستوى العالى من القداسة ، فى الجذور العميقة من الإيمان التى تجلت فى شدة استمساك الصحابة بحقهم . وانعكس هذا كله

(١) مغازى الواقدى ١ : ٢٧٢ – ٢٧٣ .

رهبة فى نفوس المشركين من مهاجمة القاعدة نفسها بعد أن انتصروا انتصاراً أوليًّا خارج المدينة . . ولو كان النصر حاسماً لأغاروا على المدينة نفسها ودمروها تدميراً . ولكنهم آثروا العودة إلى مكة دون إغارة على المدينة ، برغم ما كان فيه الصحابة من جراح وألم ، وبرغم الشهداء الذين سبقوا إلى ربهم ، وإصابة الرسول نفسه ، وقتل حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله .

ولم يكن هناك من عامل حاسم أوقف قريشاً عن طغيانها إلا الإيمان العميق الذى تجلى فى الصحابة دفاعاً عن الرسول وعن الأرض وعن دينهم وعقيدتهم . ولو أحس كفار قريش أن الهزيمة وصلت إلى نفوس الصحابة أو أن الصدمة أذهلتهم لكانت إغارتهم المباشرة على المدينة وانقضاض اليهود فى الوقت نفسه أمراً محتماً . ومن إيمان الصحابة كان الانطلاق الجديد .

الحقيقة الكبيرة :

والذى أود أن أؤكد عليه فى معركتنا مع الاستعمار وربيبته إسرائيل ، أن النكسة الحقيقية إنما تكون فى نفوسنا . ونفوسنا والحمد لله على صلابتها وتماسكها . ونحن نعلم أنها دورة وراءها دورات ، وأن أرضنا خاضت معارك على مدى قرون . وفنيت القرون وبقينا . أرضنا غزاها التتار وغزاها الصليبيون وتجمعت قوى الأرض علينا . .

فضاعت هذه القوى وطواها التاريخ وبقينا فى أرضنا ندافع عنها ونحميها دفاعاً يشترك فيه الرجال والنساء والشباب والفتيات . . دفاعاً نعلّمه لأبنائنا جيلا بعد جيل . .

نحن نعلم أن أقوى قوى الأرض وقفت ضدنا ، وأننا نخوض معركة من معارك الإنسان بين شريعة الغاب وشريعة الحق . . وأن هزيمة حكم القوة الباغية هى الضمان الأساسى لسيادة شريعة الحق . .

ولم يكن الاستعمار الجديد لينزل عن مطامعه ومكاسبه راضياً مختاراً ، فإننا لابد أن ندفع ثمن حريتنا ، وأن نخوض المعركة بعد المعركة مستفيدين من تجاربنا تعميقاً ووضوح رؤية وتصميماً حتى نحقق أهدافنا مؤمنين بربنا وحقنا .

(٣)

وما جاء فى سورة آل عمران عن هذه الغزوة يضعها فى إطارها الشامل الذى لايتقيد بلحظة زمنية سريعة أو وطن – وإنما نسمع فيها قول الله تعالى : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »[1]. ونسمع فيها قوله تعالى : « وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله

(١) سورة آل عمران : ١٣٧ .

وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين »[١].

لقد وضعت الآيات الكريمة قصة النكسة فى إطارها التاريخى دون أن تعاملها كحادثة فردية يتجمد عندها الزمان ، أوظاهرة منعزلة عن بقية التفاعلات الاجتماعية التى حدثت فى مجتمع المدينة أو أى مجتمع إنسانى . وضعتها فى إطارها الذى يضم الإيمان والعلم والعمل والعدة ويوجد الفرد والمجتمع الذى تتوازن فيه جوانب التقدم جميعاً ، فى أبعادها الزمانية والمكانية .

لقد كان الصحابة على الإيمان ، ولكنهم لم يكونوا على التنظيم ودقة تنفيذ الأمر ، فحدثت النكسة . كانت أُحُد سبباً ونتيجة : سبباً ليقظة ، ونتيجة لانتصار . كانت موضعية وعامة . كانت عربية وإنسانية . كانت إسلامية وعالمية .

من أجل ذلك وجدت من الأفضل أن أمهد لها بعرض عام لإطار الغزوات النبوية لنرى أن الغزوات جميعها ينتظمها خط واحد ، وبينها تدفق وتداع . وبعد هذه النظرة الخارجية يمكن أن ننظر إليها نظرة داخلية ندرس فيها — بشيء من التفصيل — مقدماتها وأحداثها ومعقباتها . ثم ننتقل بعد هذا إلى تحليل نتابع فيه ما علمنا ربنا فى سورة آل عمران ، وكيف عالج ربنا مشكلات هذه النكسة الأولى فى التاريخ الإسلامى .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٦ .

(٤)

وأشهد أن التوجيه الأول فى هذا الاختيار كان رسالة قرأتها منذ سنوات طوال لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية – قدّس الله روحه – جاءت فى كتاب العقود الدرية للإمام أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادى . والكتاب سجل لمناقب شيخ الإسلام ، وردت فيه هذه الرسالة القيمة تحت عنوان : « كتاب للشيخ يحض الناس فيه على حرب التتار والصبر فى ذلك . وتذكيرهم بغزوة الأحزاب ومقارنة فتنة التتار بفتنة الأحزاب »[١] وفى هذه الرسالة يمهد ابن تيمية بمقدمة يبين فيها وجوب الاعتبار بأحوال الأمم من قبلنا : « فينبغى للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه فى عباده ، ودأب الأمم وعاداتهم ، لاسيما فى مثل هذه الحادثة العظيمة التى طبق الخافقين ذكرها ، واستطار فى جميع ديار الإسلام شررها . . . وكشّر فيها الكفر عن أنيابه وأضراسه ، وكاد عمود الكتاب أن يجتث ويخترم . . وعقر دار المؤمنين أن يحل بها البوار »[٢] .

ثم يعرض بعد هذا عرضاً موجزاً لأهم ملامح الغزوات ويعود ليركز دراسته على غزوة الأحزاب مقارناً بينها وبين واقع المسلمين أمام غزو التتار .

---

(١) انظر ص ١٢٤ – ١٨٠ من الكتاب .

(٢) المرجع نفسه ص ١٢٤ .

ولايكتفى الإمام ابن تيمية بمجرد الكتابة وتجميع الرأى العام لمقاومة الغزو التتارى ، وإنما يشارك فيه بنفسه . . . وإذا كانت رسالته قد كتبها فى مصر فقد كانت المعارك التى خاضها فى الشام . يقول عنه مؤلف الكتاب : « ولقد أخبرنى حاجب من الحجاب الشاميين ، أمير من أمرائهم ، ذو دين متين ، وصدق لهجة معروف فى الدولة ، قال :

قال لى الشيخ – يوم اللقاء، ونحن بمَرْج الصُّفَّر[1]، وقد تراءى الجمعان : يا فلان ؛ أوقفنى موقف الموت. قال : فسقته إلى مقابلة العدو وهم منحدرون كالسيل ، تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم .

ثم قلت له : يا سيدى ، هذا موقف الموت ، وهذا العدو قد أقبل تحت الغبرة المنعقدة عليهم فدونك وما تريد .

قال : فرفع طرفيه إلى السماء ، وأشخص بصره ، وحرك شفتيه طويلا ثم انبعث وأقدم على القتال . وأما أنا فخُيِّل إلى أنه دعا عليهم وأن دعاءه استجيب منه فى تلك الساعة .

قال : ثم حال القتال بيننا والالتحام ، وما عدت رأيته حتى فتح الله ونصر ، وانحاز التتار إلى جبل صغير عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة وكان آخر النهار .

قال : وإذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما ، تحريضاً على القتال ، وتخويفاً للناس من الفرار .

---

(١) فى دمشق : انظر معجم البلدان لياقوت ٥ : ١٠١ ط بيروت .

فقلت : يا سيدى لك البشارة والنصر ، فإنه قد فتح الله ونصر ، وهاهم أولاء التتار محصورون بهذا السفح ، وفى غد ، إن شاء الله تعالى يؤخذون عن آخرهم .

قال : فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ودعا لى فى هذا الموطن دعاء وجدت بركته فى ذلك الوقت وبعده »[1] .

هذا نموذج مما حفظه لنا تاريخنا : استمداداً من الله ، ومنهجية فى البحث ، واستعداداً للعدو ، وتطبيقاً عملياً فى الحياة ترتبط فيه الكلمة بالفعل .

(٥)

أكتب هذه المقدمة فى منتصف رمضان ١٣٨٧هـ والعالم الإسلامى يحتفل بذكرى مرور أربعة عشر قرناً على نزول القرآن الكريم على قلب النبى عليه الصلاة والسلام .

الكتاب الذى وصفه ربنا بقوله : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم »[2] .

---

(١) العقود الدرية : ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٢) سورة المائدة : ١٥ ، ١٦ .

والذى بين الله مهمة الرسول فيه « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم»[(١)] .

ولقد تلقاه آباؤنا ربطاً بين القول والعمل . . يقول الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » ، ويقول أبو عبد الرحمن السلمى : « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى عليه الصلاة والسلام ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً »[(٢)] .

أدعو الله — إنه هو البر الرحيم — بما علمنا أن ندعوه به :

« ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » .

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً » .

الدقى { ١٥ من رمضان ١٣٨٧ هـ
١٦ من ديسمبر ١٩٦٧ م

عبد العزيز كامل

(١) سورة الأعراف : ١٥٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ١ : ٣

تقديم الطبعة الثانية

كان من توفيق الله أن يسر لى العودة إلى ميدان غزوة أحد فى شهر شوال ١٣٩٠ هـ (ديسمبر ١٩٧٠) بعد أداء العمرة . وأن أعيش فى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام أياماً ، أزور قبره الشريف ، وأصلى فى روضته ، وأسير فى أرض ترددت فيها أنفاسه ، واستجابت له ، شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ورأت أفراحه وأحزانه ، ودارت فوقها غزواته وصراعاته من أجل الحق والإنسان ، وضم ثراها أحب الناس إليه .

وسعدت بلقاء زملاء من علماء الأزهر الشريف والجامعة الإسلامية يتعاونون فى نشر العلم بالمدينة المنورة ، وتدارسنا معاً جوانب من مغازى الرسول بعامة ، وغزوة أحد بخاصة ، وزرنا هذه المشاهد ، ووقفنا عند قبر حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وشهداء أحد ، رضى الله عنهم أجمعين .

وعدت إلى هذا الكتاب أراجع فيه وأضيف إليه . داعياً الله أن يسعدنا بالنصر ، كما اختبرنا بالنكسة ، وأن يجعل من شهدائنا الذين سبقونا بالإيمان ، وإخواننا وأبنائنا الذين اتبعوهم بإحسان ، من العاملين

فى الجبهة والقاعدة ، روافد تمد مسيرتنا المؤمنة الصامدة ، نحو استعادة أرضنا السليبة ومقدساتنا المغتصبة ومسجدنا الأقصى الأسير .

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

الدقي { غرة ذى الحجة ١٣٩٠ هـ
٢٨ من يناير ١٩٧١ م

عبد العزيز كامل

عرض تاريخي

- الإطار العام للغزوات
- مؤامرة ثلاثية بعد بدر
- نكسة ولكن المعركة مستمرة
- بعد النكسة
- فوق الحزن والألم إلى مستوى المسئولية

الإطار العام للغزوات

نظرة شاملة :

لعل من الأفضل فى دراسة غزوة أحد أن نمهد لها بعرض عام لغزوات الرسول عليه الصلاة والسلام ، ناظرين إليها نظرة شاملة نحاول بها أن ننظم الأحداث الجزئية فى صورة كلية . ومن الناحية المنهجية ينبغى أولاً تحديد الملامح الرئيسية للمدينة – باعتبارها قاعدة الإسلام – ودراسة علاقاتها بما حولها ، وتعاقب الأحداث فيها ، وربط ذلك بتوزيع القوى التى ناصرت الإسلا م والتى قاومته ، وكيف استطاع النبى عليه الصلاة والسلام أن يقابل هذه القوى حتى استقر الإسلام فى المدينة .

قاعدة الإسلام فى المدينة :

ولنبدأ أولا بعرض موجز للملامح الطبيعية للمدينة . .

فهى تبعد عن ساحل البحر الأحمر بنحو ١٦٠ كيلومتراً ، وعن مكة – فى خط مستقيم – بنحو ٣٣٥ كيلومتراً . وتشغل جزءاً

منخفضاً من سهل مرتفع . ومنسوبها نحو ٧٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر . وتحيط بها الجبال — أو التلال — من ثلاث جهات ، أما الجنوب فأكثر استواء وإن كانت به بعض المرتفعات .

وتقع المدينة بين حرة واقم إلى الشرق وحرة الوبرة إلى الغرب . والحرة تكوينات بركانية . وتسمى أحياناً اللابة . وإلى شمالها جبل أحد ، ومن ورائه جبل ثور — الحد الشمالى لحرم المدينة — وإلى الجنوب جبل عير حدها الجنوبى . ويوضح الحدين الحديث الشريف : « المدينة حرام ما بين عير إلى ثور » (عن على رضى الله عنه ، أخرجه الخمسة) . . أما الحدان الشرقى والغربى وهما الحرتان فجاء ذكرهما فى حديث آخر : « إنى أحرم ما بين لابتى المدينة » (عن سعد . رواه مسلم) .

والانحدار العام للمدينة نحو الشمال الغربى . وينحدر من حرة واقم وادى بطحان ومذينيب ، ويلتقى بهما وادى رانوناء منحدراً من جبل عير . وتتجه هذه الأودية نحو الشمال الغربى ، ويلتقى بها وادى قناة منحدراً من الشرق ، ثم تنتهى إلى وادى العقيق الذى يخترق حرة الوبرة مقبلا من الجنوب ويتابع اتجاهه شمالا .

ويطلق على الأجزاء المرتفعة فى الجنوب الشرقى العوالى أو عالية المدينة ، وعلى الجزء الشمالى منها سافلتها ، ويتخذ انحدار المدينة — بهذا — عكس الاتجاه الذى يأخذه الانحدار العام لمكة .

وموارد المياه فى المدينة متوافرة ، وبخاصة على طول الأودية المنحدرة فيها أو بالقرب منها ، وهى ذات نظام شجرى يتجمع فى وادى العقيق .

وليس فى المدينة الجفاف الشديد الذى تعرفه مكة ؛ وإنما ترتفع رطوبتها — نسبياً — لوفرة مياهها .

الملامح البشرية :

وتقع المدينة على طريق القوافل الممتد من اليمن إلى الشام . واستطاع سكانها أن يفيدوا من موارد مائها وجودة تربتها ، فجعلوا منها واحة زراعية تشتهر بنخيلها وبساتيها .

وإذا كانت مكة قد تمتعت بأنها حرم الله من أقدم عصور الحياة فيها . فإن المدينة لم تتمتع بهذه الحرمة إلا بعد هجرة الرسول إليها . وهى حرمة لايدين بها غير المسلمين . . من أجل ذلك كان على المدينة — قبل الإسلام — وفى أيام النبى — قبل إسلام مكة — أن تحمى نفسها بنفسها ، وانعكس هذا على تخطيطها ونظام مبانيها وأسلوب الرسول فى الدفاع عنها .

والتكوين الاجتماعى للمدينة – قبل الإسلام – يختلف عن مكة . فقد سكنتها قبائل من اليهود : من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة . وتذكر المراجع العربية أكثر من سبب لهجرة اليهود إلى المدينة

واستقرارهم فيها وفى غيرها من الواحات كفدك ووادى القرى وتيماء وخيبر شمالى المدينة[١] .

وعندما قويت هجرة عرب الجنوب نتيجة للتدهور الاقتصادى الذى أصاب بلادهم ، من سيطرة اليونان والرومان على التجارة فى المحيط الهندى والبحر الأحمر ، وقلة الموارد التى يستطيعون بها صيانة مشروعات الرى المتعددة التى يعتمدون عليها فى زراعتهم اعتماداً كبيراً ، ومن أهمها سد مأرب ، والجفاف الذى أصاب البلاد ، خرجوا من ديارهم مهاجرين إلى الشمال واستقرت منهم قبائل فى المدينة . من أجل ذلك لم يكن فى المدينة التماسك الاجتماعى الذى عرفته مكة ، وإنما كانت فيها فُرقة من أهم مظاهرها ما كان بين العرب واليهود من أيام ، وما كان بين الأوس والخزرج أنفسهم من تنافس وفرقة وحروب .

وكانت السيادة — أول الأمر — فى المدينة لليهود ، ثم قامت حروب انتهت بانتصار الأوس والخزرج ،وصاروا أعز أهل المدينة . واتخذوا الحصون والأموال والقصور، ورجوا حين لقوا الرسول فى موسم الحج أن يجمعهم على كلمة واحدة .

وتخطيط المدينة يختلف عن تخطيط مكة ، ففى المدينة تنتشر الحصون والآطام[٢] .

---

(١) يراجع معجم البلدان لياقوت مادة : مدينة يثرب ٥ : ٨٢ — ٨٨

(٢) الأطم : البناء المرتفع .

وكان لليهود حصونهم ، وللأوس والخزرج حصونهم فى عالية المدينة وسافلتها ، وتعتمد الحصون على آبارها الخاصة لتوفير المياه فى الظروف العادية ووقت الحرب ، واستفاد أهل المدينة من توافر الماء الجوفى ، فتعددت فيها الحصون والآطام ، وكثرت الدور والبساتين .

ويبدو من دراسة كتب السيرة أن المساكن كانت متقاربة بحيث إن اليهود لم يكونوا منفردين بجزء أو أجزاء معينة من المدينة ، وإن كانوا متركزين فى الجنوب والشرق — أى فى العالية ، فى حين كان الأوس والخزرج منتشرين فى كل من العالية والسافلة . مما يدلنا على هذا أن النبى عليه الصلاة والسلام بعد انتصار المسلمين فى غزوة بدر أرسل زيد بن حارثة إلى أهل السافلة ، وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية بشيرين إلى من بالمدينة من المسلمين بفتح الله عزوجل[1].

واليهود جاءوا من الشام ومعهم بذو حضارة زراعية تجارية ، ولهم تمرسهم ببعض الحرف كالصياغة . والأوس والخزرج جاءوا من اليمن حيث حضارة زراعية تجارية لها عراقتها ومنزلتها فى الجزيرة العربية . وكان من الطبيعى أن يكون هناك تنافس على موارد المياه . ومن هنا تبدو ميزة الأجزاء الجنوبية والشرقية حيث عوالى المدينة . وإذا ما كان اليهود متركزين فى هذه الأجزاء، ولهم فيها حصونهم وقصورهم وآطامهم ومزارعهم وأسواقهم ، وفى الحصون أسلحة من

(١) ابن هشام ٣ : ٥٥ .

سيوف ودروع ورماح ، فإنهم بهذا يستطيعون أن يحققوا لأنفسهم ما يأتى :

١ — السيطرة على موارد المياه فى المدينة أو على الأقل السيطرة على أفضل الأجزاء المروية ، والقدرة على التحكم فيما يهبط من عالية المدينة إلى سافلتها من الماء . ويشتد هذا الخطر حين يقل المطر بحيث يصبح من الممكن أن تصاب بساتين السافلة بخطر محقق إذا ما حبس أهل العالية الماء حتى يأخذوا حاجتهم .

٢ — السيطرة على المواقع الحاكمة فى المدينة فى الجنوب والشرق ، وهى فى الوقت نفسه أغنى أجزائها وأوفرها ماء .

٣ — ترتبط بهذا قوة اقتصادية ظل لها خطرها حتى بعد أن قوى مركز الأوس والخزرج ، وبقيت آثارها تعمل فى المدينة حتى أجلاهم النبى صلى الله عليه وسلم عنها .

الجبهة الداخلية :

ولقد كان فى اليهود اعتزاز بقوتهم واستهانة حتى بأساليب العرب فى القتال . وعبروا عن هذا فى وضوح عندما دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام بعد غزوة بدر ، فقالوا له فى سوق بنى قينقاع : يا محمد ! لايغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس . فلا هم أسلموا ولا هم خضعوا عمليًّا ، وإنما أرادوا أن يبقوا فى

المدينة ، لهم فيها ما يمكن أن نعدّه نظاماً وفاقياً (فدرالياً) .

ولا شك فى أن مشكلة اليهود كانت أكثر تعقيداً من أى مشكلة أخرى قابلها النبى صلى الله عليه وسلم فى تنظيم حياة المدينة . وكان الحصن الأول الذى يقى المسلمين أخطارها إيمانُهم بربهم وطاعتهم لنبيهم طاعة تشمل الإذعان الظاهرى والانقياد القلبى . . انقياداً ليس فيه حرج ولا ضيق . وبيّن الله أن هذا طريق النجاة فى قوله تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم »[1].

إيمان ينبغى أن يرتفع فوق الثارات والأحقاد القديمة التى حاول اليهود إثارتها بين الأوس والخزرج حين رأوا التفافهم حول نبيهم ، وأفلحوا فى هذا مرة حتى كاد القوم أن يتقاتلوا وتواعدوا إلى الحرّة . فجاءهم النبى صلى الله عليه وسلم وجعل يسكّنهم ويقول : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم » ؟ وفيها نزل قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »[2].

وإخاء ينبغى أن يضم المهاجرين والأنصار يسجله الله فى قوله

---

(١) سورة آل عمران : ٣١ .
(٢) سورة آل عمران : ١٠٣ .

تعالى واصفاً الأنصار : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »[١] .

ومع أن النبى عليه الصلاة والسلام عقد عهداً بين المهاجرين والأنصار واليهود ، فإن التجربة العملية أثبتت نكث اليهود بالعهود ، وأنهم كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين ، ويحاولون أن يفرقوا كلمتهم كما تعاونوا مع أعدائهم .

وكان لليهود علاقاتهم وأحلافهم مع الأوس والخزرج قبل الإسلام . ومع أن الإسلام أسقط هذه الأحلاف ، فإن رءوس المنافقين ظلوا يرعونها فى بعض المواقف . وحاولوا على أساسها منع الرسول من الضرب على أيدى اليهود بعد عدوانهم المتكرر ومؤامراتهم فى المدينة . ولقد أخذ الرسول المنافقين بشىء من اللين والمهادنة ، حتى انكشفت مؤامراتهم فى غزوة تبوك ، وفيها أنزل الله سورة براءة ، فحسم الرسول أمرهم .

---

(١) سورة الحشر : ٩

الجبهة الخارجية :

وكان هناك خطر آخر يتمثل فى قريش ومن معها أوحالفها من القبائل . وقريش كانت لها منزلتها الدينية فى الجزيرة العربية وتشددها فى أمر الدين ، وارتباطها الوثيق بالبيت الحرام حتى سموا الحمس (أى المتشددون فى أمر دينهم) . ولم يكن من اليسير عليها أن ترى قوة لإسلام تزداد وتشتد فى المدينة وهى على طريق تجارتها مع الشام ، تستطيع أن تهدده كما حدث قبيل غزوة بدر .. فإذا أضفنا إلى العاملين الدينى والاقتصادى ما كان يصيب مكانة قريش من اهتزاز مع ارتفاع شأن الإسلام إن ظلت على كفرها ، استطعنا أن نرى بعض الخيوط التى نسج منها التاريخ أحداث الأعوام الحاسمة التى قضاها النبى عليه الصلاة والسلام فى المدينة .

فقريش إذن كانت لها روابطها التجارية مع الشمال والجنوب ، تستطيع أن توفر بها ما تحتاج إليه من سلاح وعدة حرب ، ولها نظامها الاجتماعى الذى تستطيع به أن توزع الأعباء فى المعارك مع الإسلام ، ولها علاقاتها التجارية مع المدن والقرى والقبائل على الطرق التجارية ، ولها زعامتها التى تستطيع أن تجمع بها قوى خطيرة تقابل بها الإسلام والمسلمين .

ولا شك فى أن أخطر الخطر أن يتجمع على الرسول ضغط

خارجي تمثله قريش ومن حالفها ، وضغط داخلي يمارسه اليهود ، وأن يكون ذلك باتفاق بين القوى الداخلية والخارجية . .

وبين هذين الخطرين الكبيرين كان على النبي عليه الصلاة والسلام أن يقود المسلمين حتى يأمنوا فى المدينة أمناً حقيقياً دائماً .

ولم يكن خطر اليهود مقتصراً على من يساكنون النبي فى المدينة، وإنما الذين سكنوا الأرض الزراعية فى خيبر وفدك ووادى القرى وتيماء ، ولهم فيها حصونهم وقوتهم المادية وقدرتهم على إيواء من يخرج على النبي من يهود المدينة .

مراحل الجهاد :

فى هذا الضوء نستطيع أن نقسم مراحل الجهاد التى خاضها المسلمون إلى ثلاث :

١ — ما قبل غزوة الأحزاب .

٢ — غزوة الأحزاب .

٣ — ما بعد غزوة الأحزاب . وهذه المرحلة الأخيرة يمكن أن تميز فيها ثلاث خطط :

(ا) الخطة الشمالية لتصفية مشكلة اليهود .

(ب) الخطة الجنوبية لتصفية مشكلة قريش . .

(ح) الانطلاق شمالا لإيقاف خطر الروم .

ويبدو من هذا التقسيم أن ذروته الخطرة كانت غزوة الأحزاب فى العام الخامس ، وإن كانت غزوةُ أحد أول نكسة فيه أصيب فيها المسلمون . ولنعرض لمعالم هذه المراحل فى إيجاز (شكل ١) :

ما قبل غزوة الأحزاب :

أهم ما تتميز به هذه المرحلة أن خطة النبى عليه الصلاة والسلام كانت تقضى بأن يقابل كل عدو من أعدائه على حدة .

وبرغم المعاهدة التى عقدها بين المهاجرين والأنصار واليهود ، فإن مشكلات نجمت احتاجت إلى قرارات لاحقة من النبى صلى الله عليه وسلم . وأهم هذه المشكلات ما ارتبط بتوزيع المياه كما ذكرنا من قبل . من ذلك ما يرويه يحيى بن آدم القرشى عن أبى مالك بن ثعلبة عن أبيه قال : اختُصِم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مهزور وادى بنى قريظة . فقضى أن الماء إلى الكعبين لا يحبس الأعلى على الأسفل[١].

ويذكر يحيى بن آدم فى هذا الباب عدة أحاديث حول الاختصام فى مياه الأودية حتى بين المسلمين من المهاجرين والأنصار . . فعن عروة بن الزبير قال : خاصم رجل من الأنصار من بنى أمية (وهم بطن

---

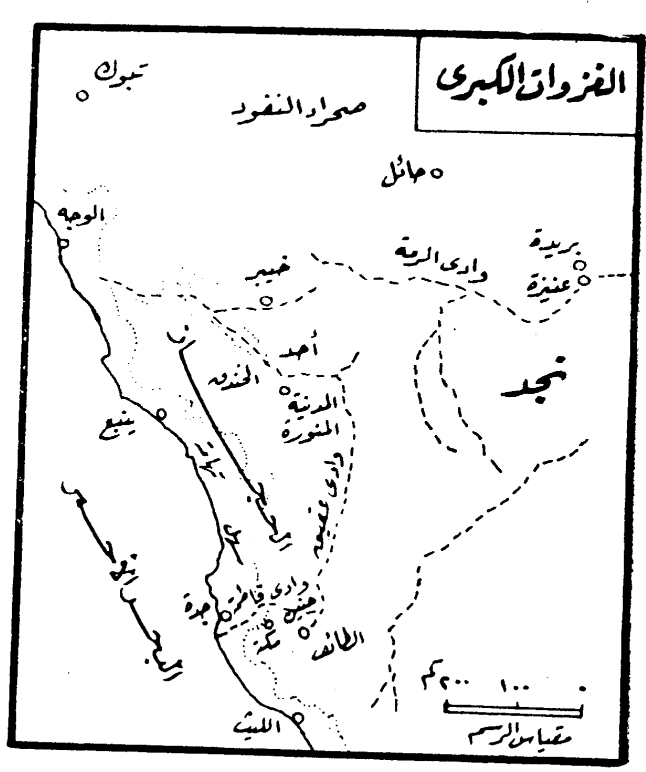
(١) كتاب الخراج ليحى بن آدم ص ١٠٠ ، ط السلفية .

من الأوس غير الأمويين القرشيين) الزبير فى شَرْج من شروج الحرة[١] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشرب (أى أسق) يا زبير ثم خل سبيل الماء ، فقال الذى من بنى أمية : العدل يا رسول الله وإن كان ابن عمتك[٢] . فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عُرف أن قد ساءه ما قال ، فقال : يا زبير احبس الماء حتى يبلغ الكعبين — أو قال الجدر[٣] — ثم خل سبيل الماء[٤] .

هذا إلى ما كان ينجم من مشكلات يثيرها اليهود قبل إخراجهم ، والمنافقون تؤثر على الحياة اليومية فى المدينة ، كما تؤثر على نتائج الغزوات وتغير موازين القوى .

وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد بدأ بإرسال السرايا يتحسس بها الجو حوله ، ويرصد حركات قريش ، لئلا تؤخذ المدينة على غرة ، فإن غزوة بدر الكبرى كانت معركة فاصلة بين المسلمين وقريش . ولا شك فى أنها تركت أثراً عميقاً على اليهود ، حاولوا أن يقللو من شأنه بالتهوين من أمر المعركة كما سبقت الإشارة إلى ذلك عندما جمعهم النبى صلى الله عليه وسلم فى سوق بنى قينقاع ، ووصل التهوين إلى الاستهزاء

(١) الشرج بفتح الشين وإسكان الراء : مسيل الماء من الحرة .
(٢) يقصد تحديد المقدار اللازم للسقى وإن كان معروفاً .
(٣) وهو مارفع من أعضاد المزرعة يمسك الماء كالجدار .
(٤) كتاب الخراج ليحيى بن آدم : ١٠٦ — ١٠٧ .



شكل (١) مواقع الغزوات الكبرى

بحرمات المسلمين فى السوق مما أدى إلى إراقة دماء من الطرفين كان من أمرها أن حاصر النبى يهود بنى قينقاع فى ديارهم فى قلب المدينة ، وأمرهم النبى بالخروج من المدينة ، فخرجوا منها إلى وادى القرى وبقوا فيه زمناً حتى تركوه إلى الشام ، وبذلك تخلص الرسول من إحدى القوى اليهودية الثلاث فى المدينة وبقى يهود بنى النضير وبنى قريظة .

واستطاع الرسول بعد هزيمة قريش فى بدر أن يسيطر على طريق التجارة الساحلى إلى الشام،وأن يهدد طريق نجد ، ولم يبق — آمناً — أمام قريش إلا الطريق التجارى الجنوبى مع اليمن وما وراءها .

وتصاعدت المعركة بعد بدر حتى وصلت إلى ذروة خطرة فى غزوة أحد . واستطاع المسلمون بعد اهتزاز جناحى الجيش فى الجولة الأولى أن يثبتوا فى الجولة الثانية وأن ينزلوا بقريش هزيمة من أروع ما سجل المسلمون من نصر . ولكن خالف الرماة عن أمر الرسول ، فتركوا مواقعهم ، وكشفوا ظهر الجيش ، واستطاع خالد بفرسانه أن ينزل بالمسلمين هزيمة ، كانت أول نكسة أصيب بها جيشهم ، وقتل فيها سبعون شهيداً غير الجرحى . واستمرت المعركة فى جولة رابعة تجمعت فيها فلول الجيش الإسلامى حول الرسول تدافع فى ضراوة وعنف حتى كلت أيدى قريش من الحرب . . فأخذوا طريق مكة دون أن يغيروا على المدينة .

وحاولوا من غدهم العودة إلى المدينة فخرج إليهم الرسول فيمن

شهد معركة أحد ، وعسكروا فى حمراء الأسد فآثرت قريش العودة دون صدام قد تخسر فيه ما جنت من يوم أحد . وانقلب المسلمون « بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم »[1] .

وانتهز يهود بنى النضير هذه القرصة وما أصيب به المسلمون من نكسة فى غزوة أحد ، وأرادوا أن يقتلوا رسول الله بطريقة ماكرة عندما ذهب إليهم يستعين بهم فى دية قتيلين معاهدين للمسلمين . ورجع الرسول وأرسل إليهم يأمرهم بالخروج من المدينة . وحاول اليهود الاستعانة بالمنافقين . ولكن الرسول حاصر حصون بنى النضير وانتهى الأمر بتشديد الحصار وخضوع اليهود لأمر الرسول بالخروج . وخرج بعضهم إلى خيبر والبعض إلى الشام . وقسّم الرسول أرضهم على السابقين من المهاجرين .

وبهذا استطاع الرسول أن يتخلص من القوة اليهودية الثانية : بنى النضير ، ولم يبق إلا القوة الثالثة فى عوالى المدينة وهى بنو قريظة .

غزوة الأحزاب :

ومن المنتظر أن نجـــد تعاوناً وثيقاً بين قريش وحلفائها واليهود على مهاجمة المدينة والقضاء على قاعدة الإسلام . وكأنهم أرادوا بهذا

---

(١) سورة آل عمران : ١٧٤ .

أن يهاجموا القاعدة ويفوتوا على الرسول فرصة مهاجمة القوى المعادية واحدة بعد الأخرى .

ولم تبد من بنى قريظة حركة أول الأمر ، وإنما الذين نشطوا فى سفور هم يهود بنى النضير ، بعد الجلاء عن المدينة ، وتعاونوا مع قريش وحلفائها من غطفان وأشجع وسليم وبنى أسد . .

واتبع المسلمون فيها ما أشار به سلمان الفارسى من حفر خندق فى الجزء الشمالى من المدينة على أن تحميها الحرتان من شرق وغرب ، والحصون القوية فى الأجزاء الجنوبية والشرقية .

أى أن جزءاً من تمام الدفاع عن المدينة كان معتمداً على العهد الذى بين النبى وبنى قريظة وهم من بقى من اليهود ، وكانت منازلهم وحصونهم فى الجنوب الشرقى من المدينة .

ونستطيع أن نتصور خطورة الموقف : المنافقون يتسللون من الرسول فى حفر الخندق ، المطر والبرد وقلة القوت ، قوى الأحزاب المتجمعة التى تريد مهاجمة الخندق ، موقف يصفه الله بقوله : « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً »[1].

---

(١) الأحزاب : ٩ – ١١ .

ونستطيع أن نتصور نتيجة اختراق الخندق ، أو نقض بنى قريظة عهدهم وسماحهم بمرور الأحزاب من أرضهم ، أو انقضاضهم على الرسول فى هذا الموقف الحرج . والذى صنعه نُعَيم بن مسعود من إيقاع الفرقة بين بنى قريظة وقريش معروف فى كتب السيرة . واستطاع نعيم أن يجعل الشك يدب فى النفوس ، وهبت ريح قوية اقتلعت الخيام وكفأت القدور ، وتراجع الأحزاب عن المدينة ، وانكشف أمر بنى قريظة . وما كانت تبيته من غدر ، وما دار بينها وبين قريش من تآمر.

وعند انسحاب الأحزاب لم يطو رسول الله لواء الجيش برغم ما لقيه المسلمون ، وإنما دعاهم من فورهم هذا إلى الذهاب إلى حصون بنى قريظة ، وكان موقفها — لو نجحت فى متابعته — كفيلا بالقضاء التام على المسلمين .

وحكم سعد بن معاذ سيد الأوس فى الأمر ، وقد رضيه الجميع حكماً، فقُتل المقاتلون وقسمت الأموال وسبيت الذرارى والنساء . .

وبهذا استطاع الرسول تطهير المدينة نهائياً من اليهود . . ولم تبق إلا الحصون الشمالية : فى خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى .

بعد الأحزاب :

وهنا نجد تغييراً فى خطة النبى عليه الصلاة والسلام . . كيف يستطيع أن يفصل بين اليهود وقريش، ويحول دون لقائهم وتعاونهم ؟ لقد تحددت الجبهات : جبهة شمالى المدينة فيها اليهود من أهلها ومن انضم إليهم ممن أخرجوا من المدينة ، وجبهة جنوبى المدينة فيها قريش وحلفاؤها ومن بقى بغير إسلام من القبائل القوية كثقيف فى الطائف .

وتبرز أهمية صلح الحديبية والعهد بين الرسول وقريش على وضع الحرب عن الناس عشر سنين .

ألا تكفى بعض هذه السنوات لإيقاف قريش ، ولو إلى حين ؟ فى هذه الفترة اتجه الرسول إلى الجبهة الشمالية واستطاع أن يصفيها وأن يُخضع حصون خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى . وكانت حروباً عنيفة ضارية فى خيبر . ولم يكن أمام اليهود إلا التسليم . وأبقاهم الرسول فى أرضهم وله نصف المحصول ، وله حق إخراجهم .

ولم تطق قريش صبراً فنقضت العهد ، وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً أمام الرسول إلى مكة . . ولقد كانت القوة الضاربة للرسول من القوة بحيث حقنت الدماء ، ورأت قريش ألا جدوى من المقاومة . وعاد الإسلام إلى مكة بعد ثمانى سنوات من هجرة الرسول منها .

وتتابعت بعد هذا غزوات حنين — وكادت أن تتكرر فيها

النكسة — والطائف فى الجبهة الجنوبية ، وكانت تبوك آخر الغزوات الكبرى فى الجبهة الشمالية حيث شارف الإسلام حدود الروم ، واقترب من حدود فارس ، أما العرب فدخلوا فى دين الله أفواجاً .

يبدو من هذا الترابط القوى بين الغزوات الكبرى التى خاضها الرسول فى المدينة وما حولها ، وفى الجبهة الجنوبية والشمالية بشقيها : حصون اليهود ومشارف بلاد الروم . وأنه — علمياً — لا يمكن أن ندرس غزوة منها — نصراً كانت أو نكسة — كظاهرة منعزلة عما حولها . وإنما هناك تدفق تاريخى علينا أن نرى إطاره العام لننظم فيه الأحداث الجزئية .

مـؤامـرة ثلاثيـة بعـد بـدر

ما وراء النصر :

كان انتصار المسلمين فى بدر فى رمضان بعد عامين من الهجرة عميق الأثر على الصراع بين قاعدة الإسلام فى المدينة وبين ثلاث قوى معادية :

١ — قريش فى مكة .

٢ — اليهود فى المدينة .

٣ — القبائل العربية القريبة من المدينة .

فقد رأت هذه القوىٰ الثلاث فى النصر الإسلامى ما يهدد مصالحها ووجودها . . ولم تكن هذه الحقائق لتخفى على الرسول ولكنه — عليـــه الصلاة والسلام — لم يرد أن يكون البادئ بالعدوان .

ولم يكن يحيا فى المدينة منقطعاً عما يحيكه له اليهود فيها . . ولا ما تتآمر به القبائل العربية ، ولا عن الاتصالات المريبة بين قريش واليهود،

بل كان واعياً ذلك كله ، عالماً أن النصر له ثمنه . ومن وراء النصر تشتد ضراوة المعركة المقبلة .

وكان تحرك هذه القوى الثلاث متداخلا . . تصطدم إحداها بالرسول . . ثم إذا ما التفت إلى قوة أخرى ليلقاها عادت الأولى إلى الحركة . . أو تحركت الثالثة ، وبهذا لم يتوقف الصراع بين قاعدة الإسلام وأعدائها ، وإنما ظل مستمرًا حتى اللقاء العنيف فى غزوة أحد بعد عام من بدر .

فماذا حدث فى ذلك العام ؟ وماذا كان هدف الرسول فى تحركاته ؟ وما هدف أعدائه ؟

السلاح الاقتصادى :

كان الهدف الرئيسى للرسول فى هذه المرحلة السيطرة على طرق تجارة قريش إلى الشمال : سواء أكانت متجهة إلى الشام أم إلى العراق . وبهذا يستطيع أن يحرم قريشاً مورداً رئيسيًّا من الموارد التى تعتمد عليها فى الهجوم على قاعدة الإسلام فى المدينة . وبالتالى تقل ضراوة الهجوم المقبل الذى توعدته به قريش بعد هزيمتها فى بدر .

وقريش بدورها كانت تعتمد على تأييد القبائل القريبة من المدينة : بنى سليم فى الجنوب وغطفان فى الشرق . . واليهود فى قلب المدينة وفى عواليها الجنوبية الشرقية .

وأحس الرسول بحركة بنى سليم وغطفان واستعدادهم ، فسارع بالهجوم عليهم فى عقر دارهم . . على طريق التجارة بين مكة والشام . وبقى فى أرض بنى سليم ثلاثة أيام بعد أن فر أعداؤه .

اليهود يتحركون :

ويعود الرسول إلى المدينة ليجد اليهود يتحركون فيها . هذا بعد أن ذهب نفر منهم إلى مكة بعد انتصار الرسول فى بدر يبكون قتلى المشركين وينشدون المراثى . وعلى رأس الباكين كعب بن الأشرف اليهودى . ويكشف الرجل عن وجهه الحقيقى معزياً قريشاً فى قتلاها : « والله إن كان محمد أصاب هؤلاء ، لبطن الأرض خير من ظهرها » .

يقول هذا ولم تكد غزوة بدر تنتهى . . وفى مكة يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويؤلب قريشاً . . ثم يعود إلى المدينة ليتغزل فى نساء المسلمين حتى آذاهم ! !

ولا يستطيع اليهود إخفاء أضغانهم بعد النصر فى بدر . . ونسوا العهد الذى قطعوه على أنفسهم وميثاقهم الذى واثقوا به الرسول عندما جاء المدينة أن يكونوا يداً واحدة على قريش .

ويتطاول يهود بنى قينقاع على المسلمين : يشككون فى قوة المسلمين وينقلون المعلومات إلى قريش ثم يصل الأمر إلى استهزاء

لئيم بمسلمة ذهبت إلى سوق بنى قينقاع . وكانت فى قلب المدينة . .فلا يملك مسلم شهد الموقف إلا أن ينتصر للمسلمة فيقتل اليهودى . وسرعان ما يتجمع اليهود حوله فيقتلوه ، ويتوتر الجو فى المدينة ، ويلجأ يهود بنى قينقاع إلى دورهم يحتمون بها .

ويذهب إليهم الرسول ينهاهم عما فعلوا . . فما كان جوابهم إلا أن قالوا : « لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب (يقصدون قريشاً) فأصبت منهم فرصة . والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس » .

لم يبق أمام هذا التحدى الصارخ إلا مقاتلة بنى قينقاع .. ثلثمائة دارع وأربعمائة حاسر (لادرع له) . . ودور وأموال واستعداد . . وهم فى موقف الدفاع داخل الدور والحصون يعتمدون على حلفائهم من المنافقين فى المدينة . وعلى رأسهم عبـــد الله بن أبىّ بن سلول الخزرجى ، ثم بنى النضير وبنى قريظة فى عوالى المدينة والقبائل المعادية المحيطة بالمدينة . . ومن وراء ذلك قوة قريش .

هذا هو الموقف الذى وجد فيه الرسول نفسه بعد بدر : عزوه بنى سليم بعد أسبوع . . وحصار بنى قينقاع بعد شهر !

واشتد حصار المسلمين لبنى قينقاع ولم تستطع قوة ما من قوى الشر أن تتحرك أمام التصميم العنيد للمسلمين حتى اضطر يهود بنى قينقاع إلى التسليم بعد خمسة عشر يوماً من بدء الحصار . .

ويتدخل رأس المنافقين عبـــد الله بن أبيّ بن سلول طالباً من الرسول أن يحسن إلى حلفائه — وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج فى الجاهلية — وانتهى الأمر بإخراجهم من المدينة فساروا إلى وادى القرى ثم إلى الشام بعد أن تركوا سلاحهم غنيمة للمسلمين . . واستطاع الرسول بهذا أن يطهر قلب المدينة من هذا الجيب الخطر .

وتتحرك قريش :

بعد شهر من غزوة بنى قينقاع . .

ويخرج أبو سفيان على رأس قوة صغيرة سريعة من مائتى فارس . . ويستعين فى عمليته هذه بثلاثة أسلحة :

١ — الحرب النفسية .

٢ — التعاون مع اليهود .

٣ — سرعة الحركة فى الهجوم والانسحاب .

ويأتى نعيم بن مسعود ليشيع أن أبا سفيان قد أعد قوة ضخمة لغزو المدينة ، وأنهم لو خرجوا له فإنهم مهزومون لامحالة . . وضد سلاح الحرب النفسية يأتى سلاح الإيمان والثبات .

ويتصل أبو سفيان بسلام بن مشكم — سيد بنى النضير — فيدله على عورات المدينة . ويسجل أبو سفيان « كرم » سلام بن مشكم فى الخمر والمعلومات فيقول عنه :

تخيرت من أهل المدينة واحداً لحلف فلم أغبن ولم أتلوم

نعم . لقد اختاره وحده من أهل المدينة ليكون حليفه على المسلمين فكان صفقته الرابحة التى لايلام عليها !!

يقول أبو سفيان هذا بعد أن أغار إغارة خاطفة خائنة على واد من أودية المدينة فى شمالها الشرقى فقتل رجلين وحرق نخلا صغاراً ، ثم فر راجعاً وقد سجل انتصاراً !!

غارة خائنة تحس فيها لؤماً انحدر حتى رأيناه فى غارات إسرائيل . . غارة تشم فيها رائحة التدبير الذى عبر القرون إلى العدوان الثلاثى . .

ويهب المسلمون بقيادة الرسول مسرعين وراء أصحاب المكر الغادر . فلا يقف أبو سفيان لقتال ، ولا يواجه الموقف بشجاعة ، وإنما يتخفف مما يحمل من طعام . . ويلقى جرب (أوعية) السويق (وهو طحين القمح أو الشعير المحمص) فيأخذها المسلمون . . ولهذا سميت غزوة السويق . . وكانت مشار سخرية العرب وتهكمهم على أبى سفيان :

— إنك ما خرجت لقتال ، ولكن خرجت لتأكل السويق . .

وتعود القبائل حول المدينة إلى الحركة :

وبطون من غطفان تجمع على التعرض للمسلمين ، وينتقل القتال من الجنوب إلى الشرق — حيث ديار غطفان فى نجد — وما يكاد يفرغ

من غزوة ذى أمر حتى تتحرك قبائل الجنوب مرة أخرى فى بحران ، فيذهب إليها ، فتفر القبائل كما فرت فى ذى أمر .

هل نستطيع القول بأن كل هذه العمليات كان هدفها استنزاف جهد المسلمين ؟

تحرك فى ديار بنى سليم فى الجنوب . ثم بنو قينقاع فى قلب المدينة . ثم سحب قوة المسلمين إلى الجنوب فى غزوة السويق ثم تحرك القبائل فى نجد ، فلا يكاد يذهب الرسول إليهم حتى يفروا ، وحتى تترامى أخبار تحرك القبائل فى الجنوب مرة أخرى !! . .

أكل هذا مصادفات ؟! . . أم كان تخطيطاً تولى أمره اليهود مع قريش والقبائل المحيطة بالمدينة ليرهقوا المسلمين فلا يستعدوا للمعركة الكبيرة فى أحد .. أو على الأقل لا يكونون فى كامل استعدادهم حين تدور السنة ويحل موعد المعركة كما حددته قريش لتهاجم المدينة ؟

وأنت ترى أن حركة القبائل كانت فى الجنوب والشرق : الجنوب على طريق الشام والشرق على طريق نجد إلى العراق .

ولقد استطاع الرسول أن يسيطر على طريق الساحل ، فتلجأ قريش مضطرة إلى طريق العراق . . وهناك ستجد أن المسلمين سبقوها على الطريق ليقطعوا عليها تجارتها ويرهقوها اقتصادياً فلا تستكمل عدتها للمعركة المقبلة .

الحرب الاقتصادية :

وفى مشكلة فتح طريق التجارة مع العراق عن طريق نجد تجتمع قريش فى مؤتمر يتكلم فيه صفوان بن أمية :

– إن محمداً وأصحابه عوّروا (أفسدوا) علينا متجرنا (تجارتنا) فما ندرى ما صنع بأصحابه وهم لايبرحون الساحل . وأهل الساحل قد وادعهم (عاهدهم) ودخل عامتهم معه . فما ندرى أين نسكن ؟ وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا فلم يكن لها بقاء . وإن حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف وإلى الحبشة فى الشتاء .

فقال له الأسود بن المطلب :

– تنكب (اترك) الطريق على الساحل ، وخذ طريق العراق لايطؤها أحد من أصحاب محمد ، فإنما هى أرض نجد وفياف (أرض قفرة) .

كانت المشكلة إذن أن قريشاً تبحث عن الطريق البديل إلى الشام . وكانت خطة الرسول الأساسية « الحصار الاقتصادى » لقريش ومحاربتها فى طريق تحاول أن تتخذه لتدعيم وضعها الاقتصادى . لقد عاهد قبائل الساحل وشدد الحراسة عليه . واستطاع أن يقطع هذا الطريق . وبذلك انتقل ميدان المعركة إلى طريق نجد .

ويصل الأمر إلى الرسول يحمله نعيم بن مسعود الذى حاول – من قبل – أن يقوم بالحرب النفسية ضد المسلمين تمهيداً لغزوة السويق .

وتخرج سرية على رأسها زيد بن حارثة . وتستطيع السرية المؤمنة أن تصيب قافلة قريش . ويفر رجالها أمام المفاجأة . ويغنم المسلمون فيها مائة ألف درهم . . وتعود فلول قريش بالهزيمة إلى مكة . . فما تزداد قريش إلا تصميما على الانتقام . . وتستعد لمعركة ضارية قاسية .

الطريق إلى أحد :

أخذت قريش تستعد لأضخم حملة عسكرية تستطيع أن تشنها على قاعدة الإسلام فى المدينة . . القاعدة المؤمنة المجاهدة التى استطاعت أن تقطع عليها طريق الساحل إلى الشام ، وطريق نجد إلى العراق . وأن تحالف قبائل ، وتهزم قبائل ، وتشل قوة اليهود فى المدينة ، وتُخرج بنى قينقاع من قلب المدينة ؛ فلا يبقى إلا بنو قريظة وبنو النضير فى عوالى المدينة .

هناك قافلة نجت من قبل . . هى قافلة أبى سفيان قبل غزوة بدر . فليجعلوا هذه القافلة كلها فى الإعداد لغزوة أحد .

ثلاثة آلاف مقاتل . . منهم سبعمائة راكب دارع . . بينهم مائة من ثقيف (من الطائف) .

ذخائر حربية كثيرة .

مائتا فارس . . وكانت أخطر قوة ضاربة .

ثلاثة آلاف بعير .

وتصر نساء قريش على الخروج يحملن الدفوف ليشهدن القتال ويذكرن قريشاً بقتلاها فى بدر .

وتولى أبو سفيان قيادة الحملة .

أرأيت كيف كانت قوة قريش فى بدر نحو الألف فرفعتها إلى ثلاثة أمثالها ؟

أرأيت كيف كان النصر فى بدر سبباً لعنف المعركة وتصاعدها فى أحد ؟

وبين بدر وأحد إرهاق مستمر فى عمليات حربية فى قلب المدينة وإلى شرقها وجنوبها .

أرأيت إلى دور الاقتصاد فى المعركة ؟

أرأيت إلى أوجه الشبه بين ماضى أمتنا وحاضرها . . وكيف تؤدى انتصاراتنا إلى ضراوة المعارك بيننا وبين الاستعمار الجديد المتستر وراء إسرائيل والمتعاون معها ؟

نكسة ولكن المعركة مستمرة

لم تكن قريش وحدها يوم أحد . وإنما بعثت رجالا منها يؤلبون العرب ليضربوا معها قاعدة الإسلام فى المدينة . وتمضى التعبئة الداخلية والخارجية إلى غايتها لتشهد المدينة – بعد عام من غزوة بدر – جيشاً معادياً لم تلقه من قبل .

وأدت الانتصارات المتوالية التى حققها المسلمون إلى تصاعد المعركة إلى أحد تصاعداً ساهم فيه – سرًّا أو علانية – اليهود ، والقبائل العربية حول المدينة وقريش .

تقدير الموقف :

وتصل إلى الرسول أخبار تجمّع قريش وحلفائها من قبائل تهامة وبنى كنانة . . ويتابع الرسول حركة الجيش المعادى من قيامه من مكة إلى وصوله إلى المدينة :

١ – من مكة يأتيه الخبر من عمه العباس بن عبد المطلب .

٢ – من ذى طوى – وهو أحد أودية مكة – يأتيه الخبر من عمرو بن سالم الخزاعى .

٣ – من العقيق – على بعد ثلاثة أميال من المدينة – تكمن عيون أرسلها النبى صلى الله عليه وسلم . وتستطيع أن تخالط جيش الأعداء وأن تحصى قوته .

وتتجمع عن الجيش المعادى معلومات دقيقة مباشرة ، يصدّق بعضها بعضاً ، ولايعتمد الرسول على مصدر واحد فى معلوماته . وعلى أساس من المعرفة الدقيقة يستطيع أن يحدد خطته .

ويجمع الرسول أصحابه فى يوم عصيب .

جاء المشركون ونزلت خيولهم حقول المسلمين بظاهر المدينة فأتت عليها ولم تترك فيها خضراء . وأنت تعلم مدى ضيق الزارع برؤية زرعه يرعاه أعداؤه .

جيش من ثلاثة آلاف مقاتل منهم سبعمائة دارع ومائتا فارس .

المنافقون والمرجفون فى المدينة يتربصون بالمسلمين الدوائر .

اليهود من بنى النضير وبنى قريظة يظهرون عطفاً على المسلمين ، تبدو فيه رائحة الغدر والخيانة ، كما برهنت الأحداث بعد هذا فى سرعة .

الصحابة آراؤهم موزعة بين الخروج إلى أعدائهم – كما فعلوا

فى معـــارك سابقة وانتصروا فيها — وبين اتباع أسلوب من المقاومة الشاملة داخل حصون المدينة .

حرب الحصون :

ويقول الرسول :

— أيها الناس ، إنى رأيت فى منامى رؤيا : رأيت كأنى فى درع حصينة . ورأيت كأن سيفى ذا الفقار انفصم عنـــد ظبته (طرفه) ورأيت بقراً تذبح ورأيت كأنى مردف كبشاً .

فقال الناس : فما أولتها ؟

— أما الدرع الحصينة فالمدينة فامكثوا فيها . وأما انفصام سيفى عند ظبته فقتل رجل من أهل بيتى . وأما البقر المذبح فقتلى من أصحابى . وأما أنى مردف كبشاً فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله (أى قائد العدو) .

ولنقف هنا عنـــد رأى الرسول الذى حدده : أما الدرع الحصينة فالمدينة فامكثوا فيها . .

ويوضح الرسول خطته ويذكر مزايا العملية :

— امكثوا فى المدينة ، واجعلوا النساء والذرارى فى الآطام ، (وهى بيوت من الحجارة كانت لأهل المدينة) فإن دُخل علينا قاتلناهم

فى الأزقة فنحن أعلم بها منهم . ورُموا من فوق الصياصى (الحصون) والآطام .

وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية فهى كالحصن .

الخطة إذن أقرب ما تكون إلى المقاومة الشعبية الشاملة أوحرب المدن . وميزتها الأولى أن المسلمين هم الذين اختاروا ميدان المعركة الذى لا يعرف العدو تفاصيله . ثم إن النضال سيشترك فيه الجميع ، وفيه إبطال لفاعلية الخيل فى المعركة . والمسلمون سيكونون فى المواقع الحاكمة ، الحصون والآطام المرتفعة ، وعندهم طعامهم ومياههم وسلاحهم .

ويلتقى عند هذا الرأى كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ، بل يرضى عنه حتى المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبى بن سلول ويؤكد وجهة نظره قائلا :

— يا رسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم . فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا . ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه . فدعهم يا رسول الله . فإن أقاموا أقاموا بشر محبس . وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم . ورماهم النساء والصبيان من فوقهم . وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

الخروج إلى الأعداء :

ويتحمس الشباب للخروج إلى عدوهم بظاهر المدينة، ويلتقون فى الرأى مع صفوة من الصحابة كحمزة بن عبد المطلب وسعد بن عبادة :

– إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم جبناً عن لقائهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا . وقد كنت يوم بدر فى ثلثمائة رجل فظفرك الله عليهم . ونحن اليوم بشر كثير . وقد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به فساقه الله إلينا فى ساحتنا .

يقولون هذا وقد لبسوا الحديد واستعدوا للحرب . ويقول حمزة وكان صائماً :

– والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفى خارجاً من المدينة .

ويزيد المتحدثون المطالبون بالخروج ، والرسول لذلك كاره . ولكن مبدأ الشورى مقرر . وفى هذا يقول المقريزى : « فلما أبوا إلا ذلك صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة بالناس وقد وعظهم وأمرهم بالجد والجهاد وأخبرهم بأن لهم النصر ما صبروا . ففرح الناس بالشخوص إلى عدوهم وكره ذلك المخرج كثير »[1] .

الرسول إذن هو الذى طلب إليهم أن يبدوا آراءهم قائلا : أشيروا

---

(١) إمتاع الأسماع ١ : ١١٧ .

عليّ أيها الناس . ونزل عند رأيهم وإن خالف رأيه . وكان من الممكن أن يتحقق النصر إذا ما نفذوا – بدقة وصرامة – الخطة التى وضعها لهم فى المعركة : فى المدينة أو خارجها .

فكأن سبب النكسة لم يكن « الخروج إلى العدو » . ولكن « مخالفة أمر القائد » فى وقت لايمكن أن يؤدى الخطأ فيه أو الاستهانة بالعدو إلا إلى أخطر النتائج .

فمن واجب القائد أن يستشير ، وأن يجمع المعلومات الدقيقة عن الموقف . ولكن من حقه أن يطاع إذا أمر . وأمره هذا مبنى على دراسة دقيقة للموقف وتقدير لقوته وقوة أعدائه .

من أجل ذلك لم يرد الرسول عندما وجد منهم بعد ذلك رغبة فى العودة إلى رأيه ، أن يتابعهم ، ما داموا قد اختاروا الخروج .

المنافقون واليهود :

ومن الغريب أن اليهود الذين لم يحاربوا الرسول إلا فى الحصون ، والذين وصفهم الله بقوله : «لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر » . يتطوعون للحرب مع الرسول !! ويسأل الرسول عندما يرى كتيبتهم :

– ما هذا ؟

فقالوا : هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبى بن سلول من يهود !.

فيردهم الرسول .

ويتابع الجيش سيره فإذا بعبد الله بن أبى بن سلول ينخذل بثلثمائة مقاتل وهو يقول :

– أيعصينى ويطيع الغلمان ؟

ويعود بنحو ثلث الجيش إلى المدينة . .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن : لماذا لم يبق رأس المنافقين فى المدينة دون خروج مع الرسول من أول الأمر ؟ ولماذا لم يصارحه بموقفه فى المسجد عند أخذ الآراء : إن خرجت فلن أخرج معك ، وإن بقيت حاربتُ معك ؟ وما الكيد الذى كان فى نفسه ليسير مع الجيش ثم يعود . . بعد أن أعاد الرسول اليهود الذين أرادوا الخروج معه ؟ . .

هل كان رأس المنافقين يريد الخروج ومعه اليهود ، بقوة تعادل فى مجموعها على الأقل نصف عدد الجيش الإسلامى ، إن لم تزد على ذلك ، فيكون له فى الموقعة كلمة قد تغير من سيرها ؟ . .

لا نستطيع الإجابة عن ذلك . ولكن الذى يؤكده التاريخ أنه عاد بعد أن خرج ، وأن عودته كانت بعد أن رفض الرسول اشتراك اليهود معه فى المعركة . .

القوة المؤمنة :

وتبقّى القوة المؤمنة من سبعمائة رجل لتقابل جيشاً من ثلاثة آلاف . فكيف يقسم الرسول جيشه ؟

هناك قوة رئيسية من ٦٥٠ عليها أن تقابل قوة من قريش مجموعها ٢٨٠٠ أى بنسبة ١ : ٤

الخمسون الباقون هم الرماة الذين أمرهم الرســول أمراً صريحاً حازماً أن يقفوا فى موضع معين وقال لقائدهم عبد الله بن جبير :

— انضح الخيل عنا بالنبل . لا يأتونا من خلفنا . إن كانت لنا أو علينا . فاثبت فى مكانك . لا نؤتين من قبلك :

أمر واضح فى جمل قصيرة محددة : مكان محدد يلزمونه ولا يبرحونه سواء انتصر المسلمون أم انهزموا . ثبات إلى النهاية فى مكان خطر .

هؤلاء الخمسون من الرماة كان عليهم أن يصدوا هجوم مائتين من لفرسان . إن النسبة كانت أيضاً ١ : ٤

واضح من هذه الأرقام العبء الضخم الذى كان على الصحابة أن يقوموا به . ولا ينسى رأس المنافقين وهو يترك ميدان المعركة أن يحاول توهين قوة المسلمين ، وإظهار أن المعركة لا تزيد على مظاهرة عسكرية ويقول :

– لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم . ولكنا لا نرى أنه يكون قتال ! !

ما مصدر هذه الاراء ؟ ولماذا يضربون المسلمين ضربتين : أولاهما الرجوع بثلث الجيش ، والثانية إشاعة أنها ليست حرباً ولا قتالا ؟

أساليب من الحرب النفسية قبل المعركة استخدمها المنافقون لتوهين الصف المجاهد .

والله يفضح هذا التآمر الخبيث فى كتابه فيقول :

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله . وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا . قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم . هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم . والله أعلم بما يكتمون »[1].

ووقف الصف الطاهر فى المعركة . . الصف اليقظ المؤمن بربه وبرسوله وبهدفه .

ويحاول أبو عامر – وكان من الأوس ، وقد انحاز إلى قريش فى مكة – أن يثير أبناء قبيلته ويناديهم :

– يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر .

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٦ – ١٦٧ .

فيجيبه قومه المؤمنون من الأوس :

ـ لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق .

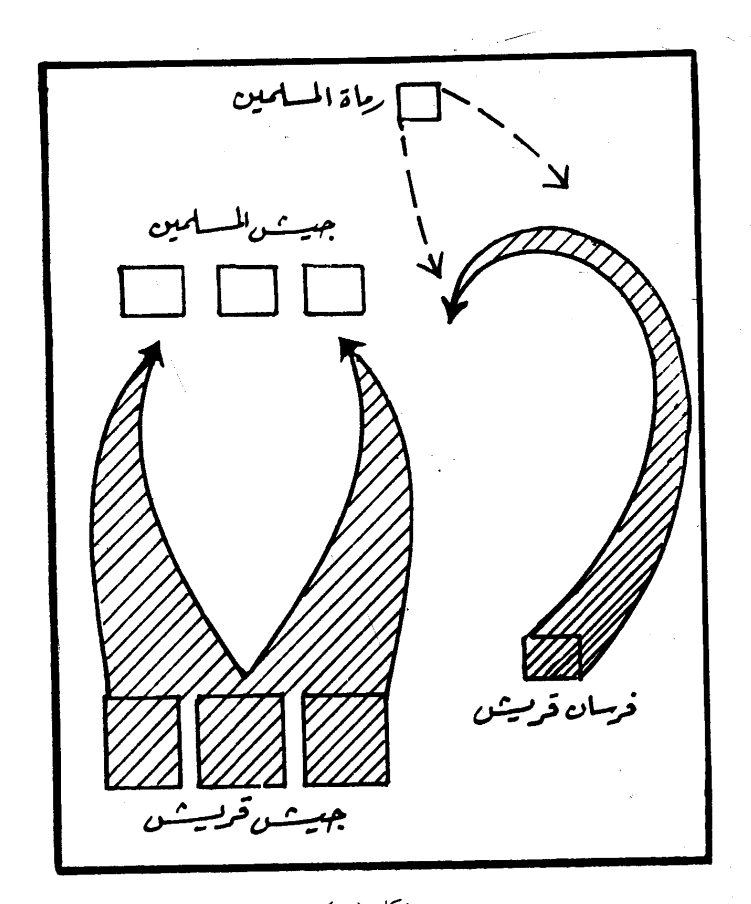
فيقول الرجل : لقد أصاب قومى بعدى شر . . وكان هـــذا بداية القتال .

وتمر المعركة فى أربع جولات سريعة متتابعة :

١ ـ توجه قريش هجوماً عنيفاً ـ تشترك فيه الخيل ـ على ميمنة الجيش الإسلامى وميسرته ، ويهتز الصف ، ثم يثبت للصدام العنيف. وينهال على قريش وابل من السهام والحجارة فيولى رجالها مدبرين (شكل ٢) .

٢ ـ يندفع قلب الجيش الإسلامى وفى مقدمة صفوفه حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وأبو دجانة الأنصارى . . ويركز الجيش هجومه على حامل لواء قريش ويسقط الرجل صريعاً . . فيحمل اللواء أخوه . . ثم أخوه . . ثم ولده . . ثم ولده . . ثم ولده . . سبعة من بيت طلحة بن أبى طلحة يحملون اللواء لايسلمونه إلا صرعى . ومن وراء الأبناء أم تدفعهم إلى القتال والموت . وترى مصارع أبنائها فلا يزيدها الموقف إلا استبسالا وعنفاً . ويحمل اللواء غلام حبشى فيسقط صريعاً . فتحمله من بعده عمرة بنت الحارث فتقيمه . ويتراجع المشركون (شكل ٣) .

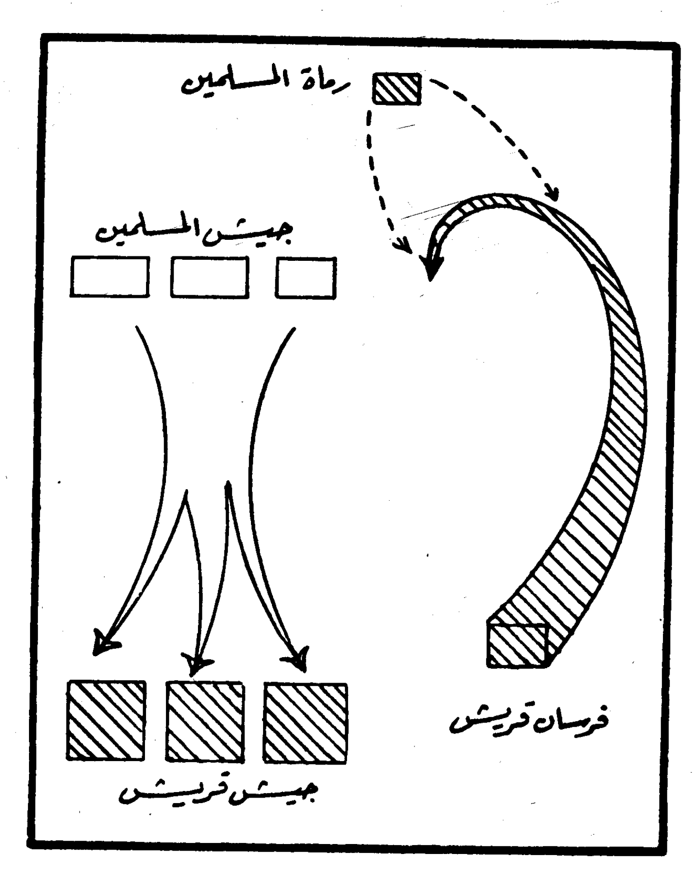
كان اللواء فى تلك الحروب شعار النصر يوحى إلى المقاتلين



شكل (٢)

الجولة الأولى من غزوة أحد

هجوم مركز من قريش على جناحي الجيش الإسلامي . محاولة التفاف غير ناجحة من فرسان قريش أحبطها رماة المسلمين .



شكل (٣)

الجولة الثانية من غزوة أحد

هجوم مضاد من قلب الجيش الإسلامى على جيش قريش . إسقاط لواء قريش . توسيع الهجوم وتعميقه. اضطرار قريش إلى الانسحاب. محاولة أخرى غير ناجحة من فرسان قريش للالتفاف .

العزم ولا يحمله إلا أشجع شجعانهم ، ومن حوله نفر يبايعونه على الموت ويموتون دونه . وكان الوصول إلى اللواء يقتضى اختراق هذا السياج البشرى المقاتل . فكيف تكون ضراوة المعركة إذا ما استطاع المسلمون اختراق السياج المستميت سبع مرات أو أكثر ، فى يوم حشدت له قريش كل هذه القوة البشرية والمادية والمعنوية ؟ !

وتتناثر صفوف قريش .

وما نصر الله المسلمين فى موطن قط ما نصرهم يوم أحد ، حتى عصوا الرسول وتنازعوا فى الأمر

النكسة :

٣ — وتأتى النكسة من الرماة الذين استطاعوا فى الجولة الأولى والثانية من المعركة أن يصدوا خيل المشركين بقيادة خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل . ويكرر فرسان قريش المحاولة فيصدها سيل من النبل فلا تقع إلا فى فرس أو رجل ، فتولى الخيل هوارب .

ظهر المسلمين محمى . . وجوههم نحو أعدائهم . . معسكر الاعداء اضطرب . . التيار الإسلامى يندفع وسط قريش بعد أن أذهلتها الهزيمة ، والقتال العنيد من المسلمين . . وتمتلئ الأيدى بالمغانم ، وتهبط السيوف .

وتتطلع أعين الرماة إلى ما يحمل إخوانهم من متاع . . « منكم

من يريد الدنيا . . ومنكم من يريد الآخرة » ويقول بعضهم لبعض :

– لم تقيمون ها هنا فى غير شىء قد هزم الله العدو . وهؤلاء إخوانكم ينهبون عسكرهم . ادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم .

ويرد القائد البطل عبد الله بن جبير مع نفر قليل من الرماة :

– ألم تعلموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال لكم : احموا ظهورنا ولا تبرحوا مكانكم . فيرد المتطلعون إلى الغنائم .

– لم يرد الرسول هذا ! . .

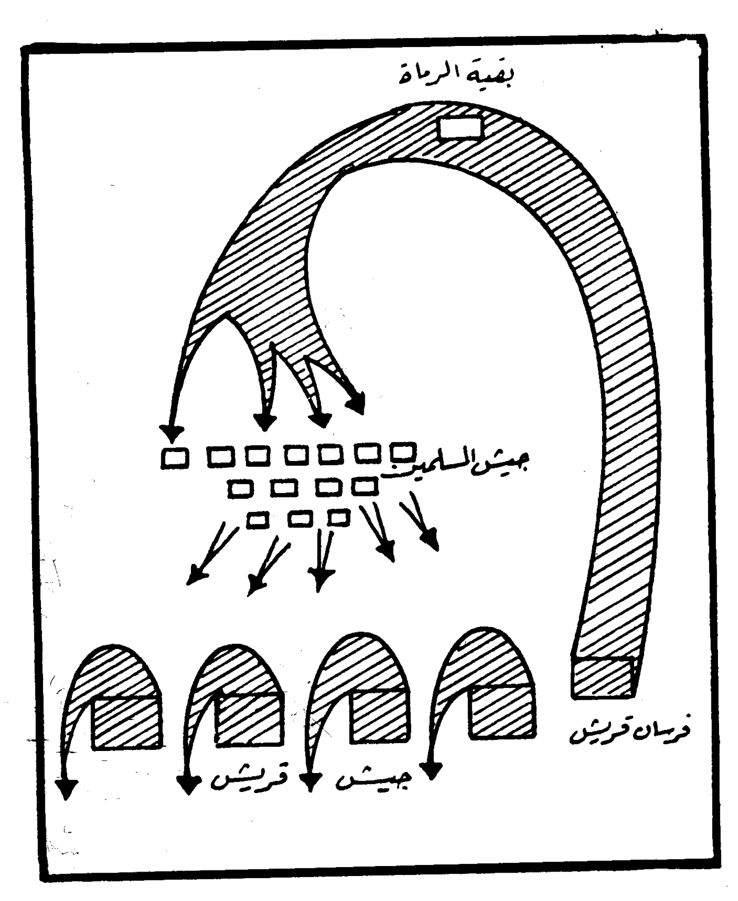
وانطلقوا . . وبقى عبد الله بن جبير فى نفر دون العشرة ليصد اندفاعاً عنيفاً من مائتى فارس بقيادة عبقرى الحرب : خالد بن الوليد .

ويكتسح خالد بقية الرماة بعد أن دافعوا عن الموقع حتى تساقطوا جميعاً شهداء . ومزق المغيرون أجسامهم ، ثم عبروهم إلى ظهر الجيش الذى شغلته الغنائم والأسلاب ، وأعمل الفرسان فيهم السيف (شكل ٤) . . واختلطت صفوف المسلمين فصار يضرب بعضهم بعضاً وما يشعرون . . وتفرق المسلمون فى كل وجه . ونادى خالد قريشاً فتجمعت وعادت إلى مهاجمة المسلمين فى عنف وشدة من فوقهم ومن أسفل منهم (شكل ٥) .

المعركة مستمرة :

لماذا انتصر خالد وقلب ميزان المعركة ؟

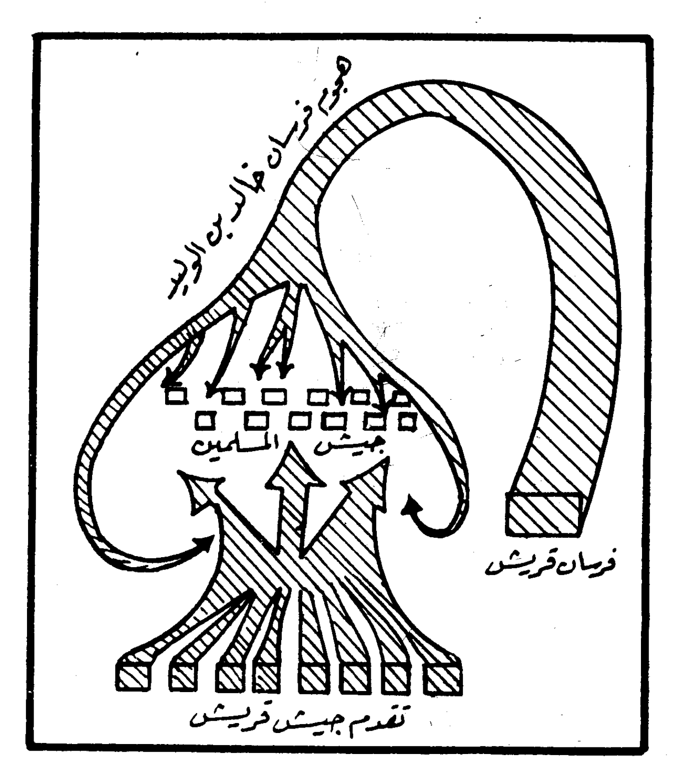
لأنه عَدَّ المعركة مستمرة .



شكل (٤)

بدء الجولة الثالثة من غزوة أحد

ترك معظم الرماة مواقعهم . نجاح خالد بن الوليد فى الالتفاف والقضاء على بقية الرماة. مباغتة الجيش الإسلامى بهجوم الفرسان بعد أن تراجعت قريش ، وحقق المسلمون نصراً مبيناً .



شكل (٥)

الجولة الثالثة من غزوة أحد : النكسة

نجاح خالد فى مباغتة ظهر الجيش الإسلامى المشتغل بجمع الغنائم. تجمع قريش مرة أخرى . حصار دموى من فرسان قريش ومشاتها لفلول الجيش الإسلامى. محاولات مستميتة بذلها المسلمون لحماية الرسول صلى الله عليه وسلم واللجوء إلى جبل أحد .

وظل محتفظاً بقوة فرسانه يرقب الموقف ليجد الفرصة التى تخلى فيها الرماة الموقع الخطير ، الذى يستطيع أن يغير منه على مؤخرة الجيش . ولم يستطع عبد الله بن جبير أن يقف مع نفر دون العشرة أمام غارة الفرسان العنيفة .

ولم يثبت حول الرسول إلا أربعة عشر من الصحابة ، يحمونه بأنفسهم ، ويحاولون أن يشقوا وسط الطوفان الحقود طريقاً إلى جبل أحد . وحول هذه القلة المؤمنة يتجمع الصحابة شيئاً فشيئاً وهى تتابع تقدمها الدامى إلى جبل أحد . . والشهداء يتساقطون . .

هذه القوة الصغيرة هى أيضاً عدّت المعركة مستمرة ، واستطاعت من جديد أن تغير ميزان المعركة بمزيد من الدماء والشهداء ، وأن تغير بهذا من وجه التاريخ .

يصف المقريزى[1] هذا الموقف الرهيب بقوله :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انكشف المسلمون لم يبق معه إلا نفير (وهم الرهط من الرجال دون العشرة) فأحدق به أصحابه من المهاجرين والأنصار . وانطلقوا إلى الشّعب (فى جبل أحد) ليحموا الرسول ، وما للمسلمين من لواء قائم ولا فئة ولا جمع ، وإن كتائب المشركين لتحوشهم (تأخذهم من كل جوانبهم) مقبلة مدبرة فى الوادى يلتقون ويفترقون : ما يرون أحداً من الناس يردهم ، ثم رجعوا نحو معسكرهم وتشاوروا فى المدينة وفى طلب المسلمين . فبيناهم على ما هم فيه ، إذ طلع الرسول إلى أصحابه : فكأنهم لم يصبهم شىء حين رأوه سالماً » .

وركز المشركون هجومهم فى صدر هذه الجولة الثالثة على الرسول ، ومن حوله النفر القليل . ولجأوا إلى الرماة المتخصصين الذين جاءوا من أجل هذا الهدف ، وكانوا أربعة : عبد الله بن شهاب وعتبة بن أبى وقاص وعمرو بن قميئة وأُبىّ بن خلف .

---

(١) إمتاع الأسماع ١ : ١٣٠ - ١٣١ .

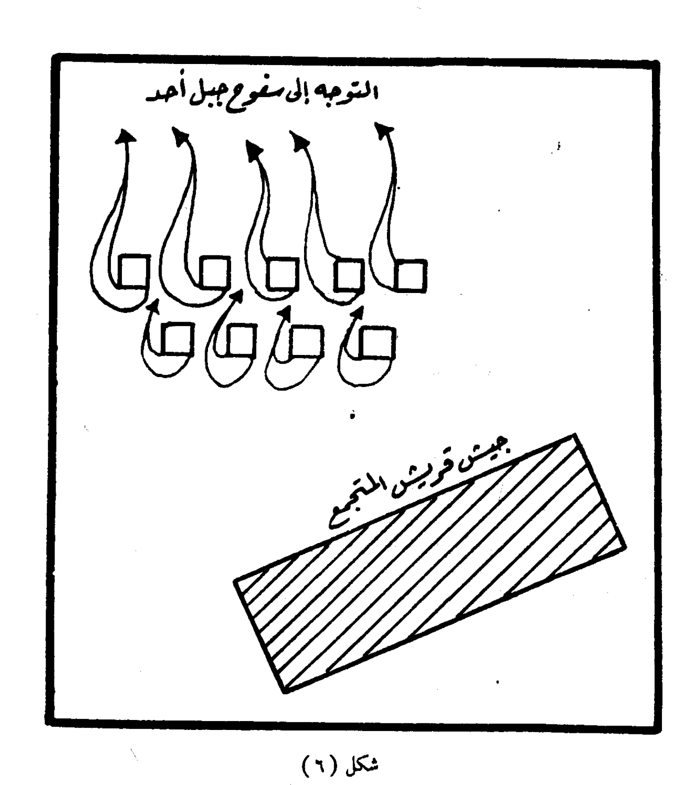
١ — وقد حاول ابن قميئة أن ينال رسول الله فتصدت له أم عمارة نسيبة الخزرجية ، رضى الله عنها وعن أهل بيتها ، وتلقت الطعنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقتل الرسول بيده أبيّ بن خلف . . .

٢ — واحتاط الرسول لأمره فخلع لأمته ، ولبس لأمة كعب بن مالك . ولبس كعبٌ لأمة رسول الله .

٣ — أمر الرسول أصحابه بالصمت عندما سرى الخبر بان المشركين قتلوا رسول الله ، لئلا يشتد الهجوم من جديد على الموقع الذى كان فيه . .

وكان هدف المسلمين ، عندما رأوا اضطراب الصفوف .واشتداد الضغط على الرسول ، أن يحموا الرسول بأنفسهم فلا يصل إليه الأعداء، وأن يخترقوا نطاق الكفار المضروب حولهم — وفى وسطهم رسول الله — حتى يصلوا إلى مكان آمن فى شعب من جبل أحد (شكل٦).

ولم يخف هذا الهدف على المشركين عندما رأوا المسلمين يقاتلون بإيمان عميق وفدائية عالية ، وهم دون العشرين ، ليحموا الرسول من أمامه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره .. فى حين يحاول المسلمون الذين اضطربت صفوفهم أن يشقّوا لأنفسهم وسط الموجة الدامية طريقاً إلى حيث يقاتل إخوانهم — دفاعاً عن الرسول — وعوناً لهم — بعد هذا — على أن يكونوا أكثر قوة فى اختراق الحصار الدموى المضروب حولهم ، واللجوء إلى جبل أحد بحيث يصبح ظهرهم محمياً .



شكل (٦)

الجولة الرابعة من غزوة أحد

نجاح معظم المسلمين فى التجمع بعد استشهاد سبعين صحابياً .

كانت هذه الخطة التى اهتدى إليها هؤلاء الأبطال ، والتى اتضحت ملامحها وسط الدماء والشهداء ، والتى يستطيعون بها أن يصححوا الخطأ الذى وقع فيه الرماة ، عندما ترك معظمهم مواقعهم ، ظنًّا منهم بأن المعركة قد انتهت وأن الأمر أصبح مغانم . .

كانت هذه الدماء هى الثمن الذى دفعوه للخطأ الذى وقع فيه الرماة .

المبايعون على الموت :

فى ذلك الموقف بايع الرسول على الموت ثمانية . . ثلاثة من المهاجرين هم : على والزبير وطلحة ، وخمسة من الأنصار هم : أبو دجانة والحارث بن الصمة والحباب بن المنذر وعاصم بن ثابت وسهل بن حنيف.

أتدرى ماذا حدث لهؤلاء الثمانية الذين بايعوا الرسول على الموت فى هذا الموقف ، ووقفوا يفدونه بأنفسهم ويقاتلون دونه ؟ الذين بايعوه والموت يتخطف من حولهم ، ويوشك أن يتخطفهم .

أتدرى ماذا حدث لهم ؟

لم يستطع المشركون أن يقتلوا منهم واحداً . . وعاشوا جميعاً.

أعمار كتبها الله تعالى . . فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون !

الشهداء المنتصرون :

وتجمع المؤمنون حول الرسول يتابعون شق الطريق وسط قريش متجهين إلى الجبل لايبالون أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم . . والرسول يناديهم :

— من رجل يشرى نفسه ؟ (أى يبيع نفسه للموت فى سبيل الله) فيتواثب المؤمنون حول الرسول .

ويقاتل دونه عمارة بن زياد حتّى يشتد نزف الدم من جراحه ويدنو من رسول الله حتّى يوسده الرسول قدمه وبه أربعة عشر جرحاً حتّى مات .

ويمر أنس بن النضر بنفر من المسلمين قعود ، فقال : ما يقعدكم ؟ قالوا : قتل رسول الله . قال : فما تصنعون بالحياة من بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه . ثم جالد بسيفه حتّى قُتل — رضى الله عنه — فوجدوا به سبعين ضربة . وما عرف أحد من هو حتّى عرفته أخته من بنانه .

ويسأل الرسول : من رجل ينظر لى ما فعل سعد بن الربيع ؟ فى الأحياء هو أم فى الأموات؟

فقال رجل من الأنصار : أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد ، فنظر فوجده جريحاً فى القتلى وبه رمق .

قال : فقلت له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أن أنظر أفى الأحياء أنت أم فى الأموات ؟

قال : أنا فى الأموات . فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى السلام . وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته . وأبلغ قومك عنى السلام . وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لاعذر لكم عند الله إذا خلص إلى نبيكم (أى إذا خلص إليه العدو) ومنكم عين تطرف .

قال هذا . ثم لحق بربه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما وجدت لشماس بن عثمان شبهاً إلا الجنة (وهى ما يقى من سلاح) . وكان الرسول لا يرى يميناً ولا شمالا إلا رأى شماساً فى ذلك الوجه يدافع بسيفه ، حتى تكاثر الأعداء حول الرسول ، فترس شماس بنفسه دونه حتى قتل شهيداً فى سبيل الله . فذلك قول الرسول : ما وجدت لشماس شبهاً إلا الجنة[1] .

ويقبل وهب بن قابوس المزنى ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس ، يقاتلان مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتأتى خيل خالد تداهم المسلمين . وتنفرق من المشركين فرقة ، فيقول الرسول : من لهذه الفرقة ؟

فيقول وهب : أنا يا رسول الله .

ويقوم يرميهم بالنبل حتى ينصرفوا ، ويعود إلى الرسول .

---

(١) كتاب المغازى للواقدى ١ : ٢٥٧ .

وتنفرق فرقة أخرى ، فيقول الرسول : من هذه الكتيبة ؟

فيقول وهب : أنا يا رسول الله .

ويقوم يدافعها بالسيف حتى ترجع ، ويعود إلى الرسول .

وتطلع كتيبة ثالثة فيقول الرسول : من يقوم لهؤلاء ؟

فيقول وهب : أنا يا رسول الله .

فيقول الرسول : قم وأبشر بالجنة .

ويندفع المزنى إلى المعركة مسروراً وهو يقول : والله لا أقيل ولا أستقيل (لا أتنحى) .

ويدخل فى الأعداء ضارباً بسيفه . والرسول والمسلمون ينظرون إليه حتى خرج من أقصاهم . والرسول يدعو له : اللهم ارحمه . ويخوض المزنى وسط الأعداء كرة أخرى وهم محدقون به ، حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم فقتلوه . . . فوُجد به يومئذ عشرون طعنة برمح ، كلها قد خلصت إلى مقتل ، ومثّل به الأعداء أقبح تمثيل .

ثم قام ابن أخيه فقاتل نحو قتاله حتى لقى ربه شهيداً . .

فكان عمر بن الخطاب يقول: إن أحب ميتة أموت عليها لما مات عليها المزنى[1] .

بهذه الروح استطاع المسلمون أن يحولوا الهزيمة إلى نصر :

(١) مغازى الواقدى ١ : ٢٧٤ — ٢٧٥ .

أقول : حولوها إلى نصر لأن قريشاً لم تستطع أن تنال هدفيها الرئيسيين : اقتحام المدينة على من فيها ، وقتل الرسول وكبار الصحابة .

انسحاب العدو في الجولة الرابعة :

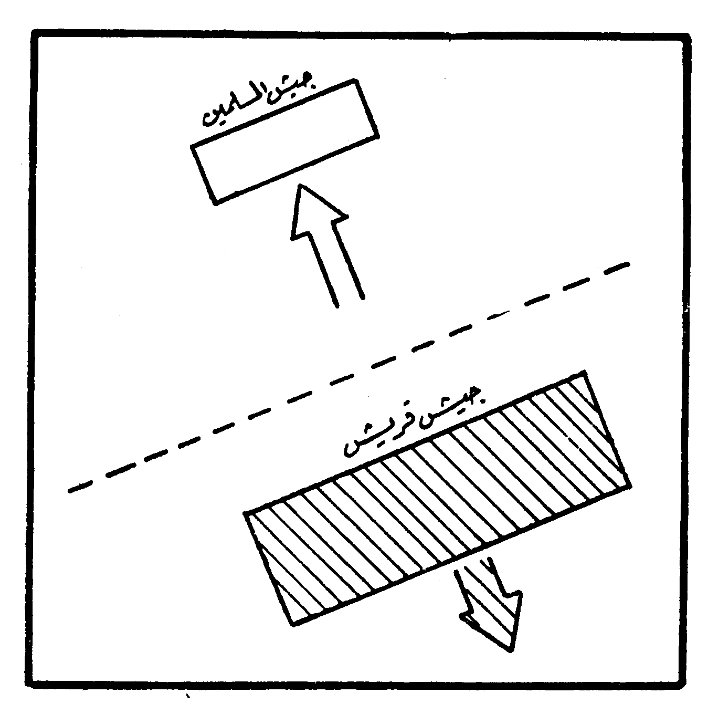
ولقد كان من المنطقى إذا ما كان المشركون قد انتصروا ، أن يتابعوا الهجوم على المدينة ليفرغوا مرة واحدة من أمر الإسلام . .

ولكن لماذا آثروا العودة وعدم دخول المدينة ؟ (شكل ٧) .

فعلوا ذلك لما رأوا من المقاومة الصلبة العنيدة الواعية التى أبداها المسلمون.. مقاومة اشترك فيها الرجال والنساء والشباب . مقاومة اشتركت فيها أسر كاملة بنسائها ورجالها وأبنائها ، كلهم يفدى رسول الله ويذود عنه ، طيبة بذلك نفسه ، مؤمناً أصدق الإيمان أن الدنيا منزلة إلى الآخرة . وأن مرده — طال به العمر أو قصر — إلى ربه الذى لا تضيع عنده الودائع . .

إيمان يوضحه قول سعد بن الربيع — وهو فى نزع الموت — فى دعائه للرسول عندما بعث يسأل عنه: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته . ورسالته إلى قومه : لاعذر لكم عند الله إذا خُلص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف . .

إيمان تجلى فى امرأة من بنى دينار أصيب زوجها وأخوها وأبوها



شكل (٧)

نهاية غزوة أحد

المسلمون في سفح أحد وإلى جنوبهم قريش . عودة قريش من ميدان المعركة إلى مكة دون هجوم مباشر على قاعدة الإسلام فى المدينة .

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : خيراً يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين . قالت : أرونيه حتى أنظر إليه . قال : فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل (تريد صغيرة) .

إيمان تجلى فى شجاعة أبى دجانة الأنصارى وهو يدافع عن رسول الله بسيفه حتى إذا كلّ السيف شحذه على صخرة ثم عاد إلى الحرب . . فما انتهت المعركة حتى أصبح السيف كأنه منجل . .

هذه نماذج من الإيمان الراسخ الذى تجلى بعد النكسة . . ولقد علمت قريش ألا سبيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم وسط هذا الحصن الذى أقامته أجسام المؤمنين . . وكلهم يهتف به : دمى دون دمك . . وروحى دون روحك . .

كلّت أيدى قريش من الحرب . والمسلمون قد انحازوا إلى جبل أحد ولم يبق أمامهم إلا أمران : الغارة على المدينة أو الانسحاب إلى مكة .

حماية الرسول والمدينة :

ويريد أبو سفيان أن يطمئن على مصرع الرسول وأبى بكر وعمر وينادى عليهم — بعد أن تحاجز المحاربون — فيرد عليه عمر بن الخطاب :

— هذا رسول الله وهذا أبو بكر وهذا عمر . .

فيقول أبو سفيان : يوم بيوم بدر . ألا إن الأيام دول وإن الحرب سجال .

قال عمر : لا سواء . قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار .

ويريد أبو سفيان أن يستوثق من مقتل الرسول مرة أخرى فيسأل عمر :

ــ أنشدك بدينك هل قتلنا محمداً ؟

قال عمر : اللهم لا . وإنه ليسمع كلامك الآن . .

فيقول أبو سفيان : إنكم واجدون فى قتلاكم عنتاً ومثلا ، ألا إن ذلك لم يكن عن رأى سَراتنا

ثم تدركه حمية الجاهلية فيقول : أما إذ كان ذاك فلم نكرهه .

ثم نادى : ألا إن موعدكم بدراً الصفراء على رأس الحول .

قال الرسول : قل نعم . فقال عمر : نعم .

الرسول حى . أبو بكر حى . عمر حى . المؤمنون حول الرسول فى ثبات وصلابة . إيمان ارتفع فوق الألم . تصميم على حماية قاعدة الإسلام فى المدينة .

فلم يجد المشركون أمامهم إلا أن يعودوا إلى مكة . . فانسحبوا من ميدان المعركة ونجت قاعدة الإسلام فى المدينة .

ويبعث الرسول سعد بن أبي وقاص لينظر : إن ركبوا الإبل وجنبوا الخيل فهو الظعن (أى السفر إلى مكة) . وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهى الغارة (أى على المدينة) . ثم قال عليه الصلاة والسلام :

– والذى نفسى بيده لئن ساروا إليها لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم .

ومرة ثانية : يؤكد الرسول أن المعركة مستمرة إذا ما حاولت قريش الغارة على المدينة .

وذهب سعد يسعى إلى العقيق (أحد أودية المدينة) فإذا هم ركبوا الإبل وجنبوا الخيل ، بعدما تشاوروا فى نهب المدينة ، فأشار عليهم صفوان بن أمية ألا يفعلوا فإنهم لايدرون ما يغشاهم . فعاد سعد فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم .

وعقدة الموقف فى هذه الجملة « فإنهم لا يدرون ما يغشاهم » لأنهم لم يكونوا يتوقعون بعد التفاف خالد بالفرسان وتطويق المسلمين ، أن يستطيع المسلمون الصمود العنيد، والمقاومة الصلبة التى نجحوا بها فى حماية الرسول ، والتجمع حوله والانحياز إلى الجبل ، والوقوف فى وجه الاندفاع المحموم برغم مصارع الشهداء ووطأة الجراح .

لم يكونوا يتصورون أن المسلمين وقد أصبحوا فى الجولة الثالثة بغير خطة ولالواء . . أن تنبثق منهم فكرة جماعية تستهدف أولا حماية الرسول ، ثم إذا بهذه الجماعة تستطيع أن تستقطب المؤمنين ،

يخوضون إليها الموت ليزيدوا من عددها ، ثم يخوضون معها الموت مرة أخرى لينحازوا إلى جبل أحد .

فكأن على الصحابى ثلاث مهام بعد النكسة : الأولى أن يصل إلى الرسول ، والثانية أن يساهم فى الدفاع عنه وعن أصحابه ، وأن يدعم قوتهم ، والثالثة أن يتعاونوا جميعاً على الانحياز إلى جبل أحد . .

هذه المقاومة الصلبة هى التى حمت الرسول وقاعدة الإسلام فى المدينة وأنقذتها . . ولولا ما رأى المشركون من ثبات الصحابة لمالوا على المدينة ميلة واحدة ونهبوها . . من أجل ذلك آثروا الانسحاب إلى مكة وأمكن إنقاذ المدينة من هذا الخطر الداهم .

مشكلات النكسة :

ولكن القصة لم تنته . . وبقيت بعدها قضايا فى العلاقة بين القيادة والقاعدة ، فى العلاقات بين قوى المدينة ، فى تقويم المعركة وإزالة آثار النكسة وجمع الصفوف لعمل جديد ، فى محاولات المنافقين التشفى من المسلمين ، وفى تبعة ما حدث على الذين حبذوا فكرة الخروج .

قضايا كثيرة أبرزتها النكسة وعادت مع العائدين .

العائدون الذين تركوا وراءهم شهداءهم وحملوا معهم آلامهم وجراحهم وإيمانهم .

عادوا إلى المدينة ومن بها من المؤمنين والمنافقين واليهود والبيوت التى خلت من رجالها وشبابها . . بيوت الشهداء .

ثم تنبت فى ذهن قريش وهى فى طريق العودة فكرة غادرة جديدة . . لماذا لايعودون من فورهم هذا لغارة على المدينة برغم الموعد الذى حددوه بعد عام ؟

فكيف قابل الرسول هذه المشكلات الداخلية والخارجية ؟ وكيف أزال آثار النكسة ؟

فوق الحزن والألم
إلى مستوى المسئولية

الرسول مع الشهداء الجرحى :

عندما انصرف المشركون من ميدان أُحد أقبل المسلمون على موتاهم ، فكان حمزة — عم النبى عليه الصلاة والسلام — فيمن أُتى به أولا . .

ونظر الرسول إلى عمه — سيد الشهداء وأسد الله وأسد رسوله — وقد مثّل المشركون به : جدعوا أنفه وصلّموا أذنه وبقروا بطنه وانتزعوا كبده . .

وتسيل الدموع من عينى النبى عليه الصلاة والسلام . . وتبكى صفية بنت عبد المطلب وفاطمة الزهراء بنت الرسول . .

وتقول صفية — أخت حمزة — عندما حاول الصحابة منعها من رؤية أخيها سيد الشهداء :

— بلغنى أنه قد مُثِّل بأخى . وذلك فى الله . فما أرضانا بما كان من ذلك . لأحتسبن ولأصبرنّ إن شاء الله تعالى .

ولما نظرت إليه صلّت عليه واسترجعت واستغفرت له .

ويقف الرسول على حمزة فيقول :

ــ لن أصاب بمثلك أبداً . ما وقفت موقفاً قط أغيظ إلىّ من هذا . . لولا أن تحزن صفية ويكون سُنّة من بعدى لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير . . ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلنّ بثلاثين رجلا منهم .

ويصلى الرسول على الشهداء ويقدمون فى القبر أقرأهم للقرآن . ولما واروا حمزة أمر الرسول ببردة (ثوب) تمد عليه وهو فى القبر لتستّر جسده ولم يجد المسلمون إلا بردة قصيرة إذا غطوا بها الرأس بدت القدمان . وإن غطوا بها القدمين بدا الرأس . فقال عليه الصلاة والسلام: غطوا وجهه . وجعل على رجليه الحَرْمَل ــ وهو نبت طيب الرائحة ــ فبكى المسلمون وقالوا : يا رسول الله ! عم رسول الله لا نجد له ثوباً ؟

فقال : تفتح الأرياف والأمصار فيخرج إليها الناس ثم يبعثون إلى أهليهم . . والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون . والذى نفسى بيده لايصبر أحد على لأوائها (مشقتها) وشدّتها إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة[1] .

---

(١) إمتاع الأسماع : ١ : ١٦١ – ١٦٢ .

هذه هى السطور الأخيرة من قصة حمزة . . سيد الشهداء الثاوى إلى جوار جبل أحد . الذى استشهد ولم يجد المسلمون ثوباً يوارى جسده فغطوا بقية جسده بنبات الأرض .

وهذه نظرة الرسول إلى المستقبل : فتح الأرياف والأمصار وفرح الناس بما فيها من نعيم ومال . . فى حين أن العمل الدائب الشاق فى قاعدة الإسلام خير لهم لوكانوا يعلمون . .

من الحزن إلى المسئولية :

ولكن لماذا يمثل الرسول بثلاثين من الكفار إن أظفره الله عليهم فى موطن آخر ؟ ولماذا يتابعه الصحابة فيقولون : والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب ؟ !

نعم . لقد ملأ الحزن النفوس لما رأت من مصارع الشهداء، والتمثيل بهم ، ولكن فى آيات الله ما يضع الأمور فى مواضعها السليمة :

« وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله . ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضَيْقٍ مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »[1].

ولنتابع مراحل هذه الآيات الكريمة . .

١ – إنها أولا تحدد العقوبة بمثل الذنب : « وإن عاقبتم فعاقبوا

---

(١) سورة النحل : ١٢٦ – ١٢٨ .

بمثل ما عوقبتم به » هنا يهبط العدد الذى عزم الرسول على التمثيل به من ثلاثين إلى واحد . .

٢ — وتنتقل الآية مرحلة ثانية فى قوله تعالى : « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » . ففى الآية تخيير : « ولئن صبرتم » . ثم تفضيل فى قوله : « لهو خير للصابرين ».

٣ — ويلى هذا أمر محدد : « واصبر » . . والصبر هنا نهى عن التمثيل ودعوة إلى ضبط النفس .

٤ — ولكن هذه النقلة عسيرة تحتاج إلى عون إلهى نجده فى قوله تعالى : « وما صبرك إلا بالله » .

٥ — وتسير الآية بالرسول صلى الله عليه وسلم مرحلة أخرى تدعوه إلى أن يجمع نفسه لمواجهة المشكلات التى أمامه فلا يتوزعها حزن على أمر مضى ، ولا ضيق بمكر أعدائه فى المستقبل . وهذا قول الله تعالى : « ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون » .

٦ — ويسمى ربنا هذا تقوى وإحساناً فيقول : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

فكان من الرسول عفو وصبر ونهى عن التمثيل بالأعداء ، وتجميع النفس والصف من أجل الهدف الكبير .

هذه هى المراحل الست التى تمر بها النفس عندما تقرأ هذه

الآيات الكريمة ، وترتفع بها من مستوى الحزن إلى مستوى المسئولية . من المستوى الذى تتنازعها فيه أحزان الماضى وهموم المستقبل إلى المستوى الذى تجمع فيه طاقتها، مستعينة بربها على أن تواجه أعباءها ببطولة سمّاها ربنا فى القرآن الكريم تقوى وإحساناً .

وفى قبر حمزة يثوى عبد الله بن جحش .

ويذكر الرسول كيف جاءه عبد الله قبل المعركة قائلا :

– يا رسول الله ، إن هؤلاء (قريشاً) قد نزلوا حيث ترى ، وقد سألت الله عز وجل ورسوله فقلت : اللهم إنى أقسم عليك أن نلقى العدو غداً فيقتلونى ويقبرونى ويمثلوا بى ، فألقاك مقتولا قد صنع هذا بى . فتقول : فيم صنع بك هذا ؟ فأقول : فيك .

ويتابع عبد الله حديثه مع الرسول القائد المسئول عن أفراد جيشه وأمته :

– وأنا أسألك أخرى : أن تلى تركتى من بعدى .

فقال الرسول : نعم

ويخرج عبد الله إلى المعركة مقاتلا فى سبيل الله ، ومثل الأعداء به تمثيلا شديداً . . وولى تركته الرسول فاشترى لأمه مالا بخيبر .

وتقبل حَمْنَة بنت جحش – أخته – فيقول لها الرسول :

يا حَمْن ، احتسبى .

فتقول : من يا رسول الله ؟

قال : خالك حمزة.

فتقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ورحمه ، هنيئاً له الشهادة . . .

ويقول الرسول ثانية : احتسبي

قالت : مَنْ يا رسول الله ؟

قال : أخوك .

فتقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . غفر الله له ورحمه ، هنيئاً له الجنة .

ويقول الرسول ثالثة : احتسبي .

فتقول : مَنْ يا رسول الله ؟

قال : مصعب بن عمير .

قالت : واحزناه .

فيقول الرسول : إن للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحد ، ثم يتابع حديثه :

– لم قلت هذا ؟

قالت : يا رسول الله ، ذكرت يُتْم بنيه فراعني .

فدعا رسول الله لولده أن يحسن عليهم من الخَلَف. فتزوجت طلحة بن

عبيد الله ، فولدت له محمد بن طلحة وكان أوصل الناس لولده . وكانت حمنة خرجت يومئذ إلى أحد مع النساء يسقين الماء[١] .

المتحابون فى قبورهم :

ويأمر الرسول بدفن عبد الله بن عمرو بن حرام، وعمرو بن الجموح فى قبر واحد . كان الأعداء قد مثلوا بهما أبشع تمثيل : قطعوا آرابهما (يعنى عضواً عضواً) فلا تعرف أبدانهما .

ويقف الرسول على قبرهما قائلا : ادفنوا هذين المتحابين فى الدنيا فى قبر واحد[٢] .

العودة إلى المدينة :

ويعود الرسول إلى المدينة. . بعد أن استطاعت أيدى الأعداء أن تنال منه برغم الفدائية العالية التى أبداها المسلمون. . وصلت إليه حجارتهم حتى وقع على الأرض ، كسرت رباعيته ، شج وجهه ، كلمت شفته ، دخلت حلقات المغفر فى وجنته ، وسال دمه الشريف فجعل يمسحه وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ فأنزل الله قوله : « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب

(١) مغازى الواقدى ١ : ٢٩١ - ٢٩٢ .
(٢) مغازى الواقدى ١ : ٢٦٦ - ٢٦٧ .

عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون »[١]

يعود بعد أن شهد مصرع حمزة . . وشهد مصارع سبعين من أصحابه ، فى حين كان قتلى قريش وحلفائها اثنين وعشرين .

يعود بعد أن خالف الرماة عن أمره وعرضوا الجيش لنكسة دفع الجميع ثمنها دماء واستشهاداً وبلاء وصبراً .

وينظر إلى أصحابه وعامتهم جرحى ، وأعظمهم مصاباً بنو سلمة ، وبنو عبد الأشهل . وتعود معه النساء المؤمنات اللاتى شهدن المعركة . . من فقدت زوجها وولدها وأخاها . . من دافعت عن رسول الله بنفسها . . من سقت الجرحى . . ويرتفع صوت الرسول :

— اصطفوا فنثنى على الله !

بعد الجهاد والاستشهاد والدماء والمخالفة واليقظة والدفاع المرير . بعد الشهداء الثاوين إلى جوار جبل أحد . . بعد هذا كله يرتفع صوت النبوة : اصطفوا فنثنى على الله !!

حتى فى هذا الموقف لون من النظام : اصطفوا . .

ومع الإيمان واليقظة بعد النكسة ليكن منا ثناء على الله . .

ويصطف الرجال صفين خلفهم النساء . . ويدعو الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

---

(١) سورة آل عمران : ١٢٨ .

– اللهم لك الحمد كله ، اللهم لاقابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولامعطى لما منعت ، ولا هادى لمن أضللت ، ولامضل لمن هديت ، ولامقرب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت . اللهم إنى أسألك من بركتك ورحمتك وفضلك وعافيتك . اللهم إنى أسالك النعيم المقيم الذى لايحول ولايزول . اللهم إنى أسألك الأمن يوم الخوف ، والغنى يوم الفاقة ، عائذاً بك من شر ما أنطيتنا (أعطيتنا وهى لغة يمنية) وشر ما منعت منا . اللهم توفنا مسلمين . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين . . »[1] .

وهكذا يرد الأمر إلى الله تعالى بعد أن بذل أقصى الجهد . وهذا صميم التوكل الإيجابى : أن تعمل وتعمل وتعمل . . وترد الأمر كله إلى الله تعالى .

وفى الحديث وقفات طويلة ، ونستطيع أن نرجع إليه ، وأكتفى هنا بصدر الدعاء : اللهم لك الحمد كله .

فقد استطاع إيمان الصحابة أن ينتزع من النكسة أروع معانى القوة ، والثبات والإيجابية ، التى تتكافأ مع دعاء الرسول : اللهم لك الحمد كله . .

ويمر الرسول على دور بنى الأشهل ، وتقبل أم سعد بن معاذ ،

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١ : ١٦٢ .

وسعد آخذ بعنان جواد رسول الله ، وتدنو من رسول الله وتتأمله وتقول : أمّا إذ رأيتك سالماً فقد أشوت (هانت) المصيبة .فعزاها الرسول بعمرو بن معاذ ابنها ثم قال :

– يا أم سعد ! أبشرى وبشرى أهليهم أن قتلاهم ترافقوا فى الجنة جميعاً – وكانوا اثنى عشر رجلا – وقد شُفِّعُوا فى أهليهم .

فتقول الأم المؤمنة الصابرة :

– رضينا برسول الله ، ومن يبكى عليهم بعد هذا ؟

ثم تذكر من وراءها من قومها . . من أمهات وأخوات وزوجات الشهداء فتقول للرسول :

– ادع يا رسول الله لمن خُلِّفوا .

فيقول الرسول : اللهم أذهب حزن قلوبهم واجبر مصيبتهم وأحسن الخَلَف على من خُلِّفُوا . .

ويأمر الرسول الجرحى أن يعودوا إلى ديارهم ، وكلهم يود أن يطمئن على الرسول حتى يبلغ داره .

ويعود الجرحى إلى الدور يوقدون النيران ويداوون الجروح . ومضى سعد بن معاذ مع رسول الله حتى جاء بيته فما نزل عن فرسه إلا حَمْلا . واتكأ على سعد بن معاذ وسعد بن عبادة حتى دخل بيته .

فلما أذن بلال لصلاة المغرب ، خرج على مثل تلك الحال ، يتوكأ على السَّعدين فصلى ثم عاد إلى بيته .

وبكت الأنصار على قتلاهم ، فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

ــ لكن حمزة لا بواكى له .

فجاء نساء الأنصار إلى باب الرسول ، فبكين على حمزة ، فدعا لهن الرسول ، وأمرهن بالانصراف ، فهُنَّ إلى اليوم إذا مات الميت من الأنصار بدأ النساء فبكين على حمزة ثم بكين على ميتهن[1] .

ولكن المعركة لا تزال مستمرة :

كم يوماً تحتاج إليها هذه الجراح حتى تندمل ؟ وجراح النفوس ؟ ودموع العيون ؟ ومآتم الشهداء ؟ وأعين اليتامى المتطلعة باحثة عن آباء غيبتهم القبور ؟

ومتى يستطيع المسلمون أن يخوضوا معركة ثانية بعد أحد ؟

لقد عادوا وقريش تواعدهم بعد عام . .

وكانت غزوة أحد يوم السبت للنصف من شوال فى السنة الثالثة للهجرة . .

وكانت غزوة حمراء الأسد يوم الأحد صبيحة المعركة الكبيرة .

---

(١) طبقات ابن سعد ٢ : ٤٤

فما يكاد الرسول يدخل داره ليستريح بعض الوقت بعد هذا اليوم الطويل حتى يأتى عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى إلى رسول الله يخبره أنه كان بمَلَل (وهو مكان على طريق مكة) حيث نزلت قريش وهى فى طريق العودة ، وتشاوروا ليرجعوا حتى يستأصلوا من بقى من المسلمين فى المدينة . أبو سفيان يحبذ ذلك وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم والقوم فى مشاورة .

ويدعو الرسول أبا بكر وعمر ويذكرلهما ذلك فيقولان :

– اطلب العدو يا رسول الله ولا يقتحمون على الذرية .

فلما صلى الصبح يوم الأحد ، ومعه وجوه الأوس والخزرج ، وقد باتوا فى المسجد على بابه يحرسون رسول الله ، أمر بلالا فنادى :

– إن رسول الله يأمركم بطلب عدوكم . ولايخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس .

ليلة واحدة قضاها المجاهدون فى دورهم يداوون جراحهم . وفى البيوت مآتم ودموع وآلام . . وفى النفوس إيمان يرتفع فوق الألم ، ويستعصى على كيد المنافقين والمشركين.

كانوا يتوقعون حرباً بعد عام فإذا بهم يخرجون لعدوهم فى اليوم التالى للمعركة الرهيبة . .

ويخرج سعد بن معاذ إلى داره يأمر قومه بالمسير وكلهم جرحى :

– إن رسول الله يأمركم أن تطلبوا عدوكم .

فقال أسيد بن حضير وبه سبع جراحات يريد أن يداويها :

ــ سمعاً وطاعة لله ورسوله .

ويأخذ سلاحه ليلحق برسول الله . .

وخرج من بنى سلمة أربعون جريحاً . . وبالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحاً . . حتى وافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآهم قال : اللهم ارحم بنى سلمة .

ولا أكاد أجد قولا أعقب به على هذا الموقف . . ومؤرخو الإسلام يذكرون هذه الحقائق فى موضوعية عميقة مشرقة بالإيمان . . وكان عبد الله ورافع ابنا سهل بن رافع الأنصارى قد رجعا من أحد وبهما جراح كثيرة ، فخرجا يزحفان ، فضعف رافع فحمله عبد الله على ظهره مرة ومشى مرة . فدعا لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أتياه وقال :

ــ إن طالت بكم مدة كانت لكم مراكب من خيل وبغال وإبل. وليس ذلك بخير لكم . .

هذه صورة الإيمان الصلب العنيد الذى لا يحاول التهرب أو الاعتذار . . وإنما يرتفع فوق مستوى الألم إلى مستوى المسئولية . لا يرجو منها إلا وجه الله تعالى . . هكذا عاشوا ، وعلى هذا لقوا ربهم . . رحمهم الله .

ويتأكد خبر قريش من مصدر آخر ــ معبد الخزاعى ــ ولم يكن مسلماً .

حرب نفسية :

ويعسكر الرسول فى حمراء الأسد على بعد عشرة أميال من المدينة ، يجمع أصحابه فى نهارهم حطباً كثيراً ، فإذا أمسوا أمر أن تُوقَد النيران .. فلقد أوقدوا خمسمائة نار ، حتى رؤيت من مكان بعيد .

ويعود معبد الخزاعى إلى قريش ليخبرهم أن محمداً وقومه خرجوا إلى لقائهم ، وأنه قد تركهم يتحرقون على لقاء قريش مثل النيران وأنهم فى طلبهم .

وتحس قريشاً أنها فقدت عنصر المفاجأة والمبادأة . ويتغلب الرأى القائل بالانسحاب خوفاً من لقاء جديد مع المسلمين قد ينتصرون فيه ، فتضيع ثمار غزوة أحد وما تركته فى نفوس العرب .

ويلجأ أبو سفيان بدوره إلى الحرب النفسية ، فيبعث مع نفر من عبد القيس يريدون المدينة ، أن يعلموا رسول الله أنهم أجمعوا الرجعة إليه . فلما بلغه ذلك قال : حسبنا الله ونعم الوكيل .

هذا وقريش ممعنة فى طريق العودة . والرسول معسكر فى حمراء الأسد ثلاث ليال قبل أن يعود إلى المدينة ، دون أن تجرؤ قريش على الاصطدام به . .

وفى هذا ينزل قول الله تعالى واصفاً أصحاب الرسول وكيف استجابوا له برغم الجراح والآلام وتهديد قريش : « الذين استجابوا لله

والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم»[١] .

حصاد الغزوة :

ويعود الرسول إلى المدينة وقد استطاع حمايتها من غدر قريش . واستفاد من عمق الدفاع ، فلم يقابل قريشاً فى المدينة أو على أطرافها ، وإنما على بعد عشرة أميال منها .. أى فى موقع يبعد عن موقع غزوة أحد نفسها . . وبدا جانب من عمق النظرة فى الخروج إلى العدو ومبادأته فى تلك الظروف .. والارتباط الوثيق بين القيادة والجيش الإسلامى، وسرعة الاستجابة لأمر الرسول بالخروج ، واختيار مكان المعسكر . . بعيداً عن المدينة بعد أن كان يدافع بجوارها وجه النهار ، وبعد أن كان يفضل من قبل الدفاع محتمياً بحصونها . ثلاث خطط فى يوم وليلة تؤكد مرونة العمل، وسرعة التكيف للمواقف المتجددة دون جمود على خطة واحدة .

واستطاع الرسول بهذا أن يرفع من معنويات المسلمين كجبهة، ومن منزلتهم أمام العرب واليهود . .

---

(١) سورة آل عمران : ١٧٢ - ١٧٤ .

كل هذا لأنهم ارتفعوا فوق الألم إلى مستوى المسئولية ، واستطاع الجهد المشترك أن يقضى على المشكلات التى كانت تنتظرهم فى المدينة، والتى ترتبت على غزوة أحد .

تحليل قرآني

- صراحة في مواجهة النكسة
- قوانين اجتماعية
- علم وإيمان
- الاستعداد للمعركة : بين الأمل والمواجهة العملية
- سلبيات ثلاث وإيجابيات ثلاث
- النكسة بين عمق الإيمان وثورة الشك
- الرسول والذين آمنوا معه



صراحة فى مواجهة النكسة

ستون آية يخصصها ربنا تبارك وتعالى فى سورة آل عمران لدراسة غزوة أحد ابتداء من قوله تعالى : « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم » إلى قوله تعالى : « فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم »[1] .

فى هذه الآيات يعرض ربنا قصة النكسة عرضاً يدرس حتى خلجات النفوس ، وما اضطرب فيها من نوازع الثبات مع الرسول ، أو التخلى عنه والعودة من ميدان المعركة ، ويصف مواقف الصحابة بعد النكسة فى صراحة وموضوعية : « إذ تُصعدون ولا تلْوُون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم » ، ويدرس قضية القيادة ويضعها فى إطارها الإنسانى العام بعد أن أشاع الأعداء قتل الرسول : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم »!! .

---

(١) سورة آل عمران : ١٢١ — ١٧٩ .

وينتقل من النكسة – كحادث – إلى وضعها فى الإطار العام لحركة التاريخ والصراع فيه بين الخير والشر : « وتلك الأيام نُداولها بين الناس » ويدرس جانباً من قوانين تطور المجتمع : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض . . » ويربط بين النكسة العسكرية والأساس الاقتصادى للمجتمع . ويؤكد ضرورة الحصول على المال دون استغلال ، فينهى عن أكل الربا ، كما يدعو المسلمين إلى الإنفاق فى السراء والضراء . . ويؤكد حق القاعدة فى إبداء الرأى بعد النكسة ، ولايتخذ منها ذريعة لإهدار هذا الحق الطبيعى المشروع ؛ ثم يعالج مشكلات الحرب النفسية فى المدينة بعد النكسة ، وما يقوله المرجفون فى المدينة ، والمنافقون من اعتراض على خطة الغزوة وخطأ الخروج إلى ميدان أحد، وما أدى إليه هذا من إراقة دماء ، كان من الممكن صيانتها ، لواتبع المسلمون خطة الدفاع فى قلب المدينة . وتبين الآيات الكريمة بعد هذا أفراح الشهداء عند ربهم ، وتؤكد أسلحة النصر من الإيمان والعمل الدائب والصبر . .

ومهما يكن من تفصيل فى تحليل هذه الغزوة ، ودرس النكسة فيها ، ثم الارتفاع إلى مستوى المسئولية الجديدة ، وتعميق مفاهيم العمل بعدها ، فإنى أرجو أن يعود القارئ إلى نص المعالجة فى سورة آل عمران ليقرأه دفعة واحدة ، وليرى فيها صورة متكاملة يعلمنا بها ربنا كيف نستفيد من النكسة إيماناً وانطلاقاً إلى عمل جديد مع شدة استمساك

بما نعتقد أنه الحق ، دون مساومة أو تهاون ؛ فتكون النكسة « مَصْلاً » يقي الجسم من خطر أكبر . . وقد استطاع الصحابة بعد أُحد أن يسجلوا الكثير من الانتصارات ، فلم تقابلهم نكسة كبيرة إلا بعد فتح مكة فى غزوة حنين عندما أعجبتهم كثرتهم ، فلم تغن عنهم شيئاً .

ولنعد إلى معالجة القرآن الكريم لغزوة أحد فى سورة آل عمران .

خروج وثبات بعد انسحاب المنافقين :

ولنقرأ معاً قول الله تعالى : « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم . إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون»[1] .

والآية تنقلنا مباشرة إلى ميدان المعركة . . فالنبي يخرج فى الغداة . . مبكراً من أهله إلى ميدان أحد ، يحدّد للمقاتلين أماكنهم : قلب الجيش وجناحيه ومكان الرماة . . ولنتأمل فى قول الله: « مقاعد للقتال » . . أماكن محددة كأنهم قاعدون فيها لايتركونها . . والله سميع لقولهم ، عليم بسرهم وجهرهم .

وتمر الآية هنا دون ذكر لموقف له خطره ، وهو رجوع عبد الله ابن أبي بن سلول بثلث الجيش ، وتركز على تأثير ذلك على بعض المؤمنين . . « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا » والطائفتان هما

---

(١) سورة آل عمران : ١٢١ – ١٢٢ .

بنو سلمة وبنو حارثة من الأنصار . والهمّ هنا حديث نفس . فقد حاول رأس المنافقين أن يأخذهم إلى جانبه ويعود بهم إلى المدينة. . وتتصارع الفكرتان فى نفوس الطائفتين : أيبقون ليقاتلوا مع الرسول أم يعودون إلى المدينة ؟

ويتغلب الإيمان والثبات . . لماذا ؟ السر فى قوله تعالى : « والله وليهما » .

ولاحرج على الإنسان أن تتصارع فى نفسه فكرتان . المهم أن يتغلب الحق ، وأن يثبت الإنسان فى الموقف الذى يجب أن يراه الله فيه .

ولما نزلت هذه الآية قال بنوسلمة وبنوحارثة : « ما يسرنا أنا لم نهم بالذى هممنا به ، وقد أخبرنا الله أنه ولينا»[1] .

وماذا بعد أن عزموا المضى مع رسول الله ؟

عليهم أن يتوكلوا على الله ربهم ، يلتمسون منه بالطاعة النصر. من أجل ذلك يعقب ربنا على الآية بقوله : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

والآية تقدم مصدر القوة : على الله .

يلى هذا الفعل : فليتوكل .

ثم يأتى المحتاج إلى نصر الله : المؤمنون . . فى ختام الآية .

---

(١) تفسير الطبرى ٧ : ١٦٦ .

الله هو النور الذى يهديهم . . والتوكل طريقهم ، وهم على الطريق يسيرون .

ذلك لأنهم كانوا يقابلون عدواً يبلغ فى العدد أربعة أضعافهم ، وله قوة فرسان لانظير لها عندهم . .

فى الآية مصارحة بخلجات النفس ، دون ذكر المنافقين . . فالحديث كله عن الإيمان والمؤمنين الذين خرجوا لقتال عدوهم . . ومع أنهم خرجوا وقد عرضوا صدورهم للقتال ، وعزموا على الشهادة فى سبيل الله ، فإن القرآن الكريم يعرض ما كان فيه بعضهم من صراع نفسى دون أن يُخفى ذلك .. أو يُهَوّن من أمره . فهذه نفوس إنسانية تصطرع فيها الآراء، ونوازع القسوة والضعف والإقدام والإحجام .. والقرآن الكريم لايعرض علينا صوراً أسطورية عن البشر ، من المحال أن يسير الإنسان على هداها . . وإنما يعرض علينا ربنا صوراً إنسانية مؤمنة . . « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا . . والله وليهما » .

فأنت فى معركة القلق النفسى تذكر دائماً هذا المصدر الربانى « والله وليهما »، ينير لك الطريق إلى الثبات وأداء الواجب . . ووسط تكاثف الأحداث وظلمة الشك وثورته يأخذبيدك : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

والتوكل هنا كان عملياً إيجابياً دائباً ، استطاع كما رأينا أن ينتزع من النكسة انتصاراً . .

بدر وأحد وحنين :

وبعد المصارحة حتى بخلجات النفس فى هذا الموقف تنتقل الآيات إلى ذكر غزوة بدر : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون » .

هنا نجد ربطاً بين غزوتى أحد وبدر :

فى بدر كان الانتصار الكبير الذى اعتمد — أكثر ما اعتمد — على الإيمان العميق ، والفدائية الرائعة ، والالتزام الكامل بالخطة التى انتهى إليها الرسول بعد مشاورة أصحابه من مهاجرين وأنصار .

دخلوا غزوة بدر وخير وصف لهم ما جاء فى دعاء الرسول لهم :

« اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، وعراة فاكسهم ، وجياع فأشبعهم ، وعالة فأغنهم من فضلك » .

وخرجوا من المعركة فما عاد أحد منهم يريد أن يركب إلا وجد ظهراً . للرجل البعير والبعيران . واكتسى من كان عرياناً . وأصابوا طعاماً ومالا فاغتنى به كل عائل .

غزوة أيدهم فيها ربنا وملائكته واستطاع فيها المؤمنون أن يقطعوا طرفاً من أعدائهم — بالقتل — ويكبتوا طرفاً آخر بالهزيمة . وفى هذا يقول الله تعالى : « ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين » . .

ذكر بدر هنا ربط بين النصر والنكسة، وتوضيح لأسباب كل منهما . . وللأهداف العامة للصراع . .

وفى سورة التوبة نجد ربطاً بين النصر ودرس النكسة فى غزوة حنين حيث يقول ربنا : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين » . .

كان سبب النكسة فى حنين استهانتهم بعدوهم « فقالوا لن نهزم اليوم من قلة » ، فى حين كان قائد عدوهم مالك بن عوف — على حداثة سنه — على علم بكل تحركات المسلمين ومدى اعتزازهم بقوتهم . وعندما كانوا ينحدرون فى الوادى فى عماية الصباح ، ما راعهم إلا هجوم عنيف مركز مفاجئ من جانبى الوادى المنحدر ، وشد عليهم عدوهم شدة رجل واحد ، فانقلب المسلمون راجعين لا يلوى أحد على أحد . واضطرب الجيش ، وفر من فر ، ولم يثبت حول الرسول إلا القليل . وكادت أن تتكرر نكسة غزوة أحد . واحتاج الموقف إلى تضحيات ودماء جديدة حتى استطاع المسلمون التجمع حول الرسول ، والقيام بهجوم عنيف مضاد لم يملك معه الخصم إلا الانسحاب من الميدان . .

وهنا أيضاً نجد المصارحة بأسباب النكسة : « إذ أعجبتكم كثرتكم » . نجدها فى صدر القصة لأنها كانت الدرس التالى بعد النكسة الأولى

فى أحد ، وإن كانت بينهما خمسة أعوام . . هذه الاستهانة فى حُنين بقوة الخصم ، جعلتهم لايدرسون ميدان المعركة بدقة ، ولاتوزيع قوات العدو ولا خططه المتوقعة ، ولم يعنوا ببث العيون والأرصاد والطلائع . . لماذا ؟ اعتماداً على كثرة عددهم فلم تغن عنهم الكثرة شيئاً ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وولوا مدبرين ، لولا أن ثبت قليل منهم أيدهم ربهم بنصره ، واستطاعوا أن يجمعوا الجيش المدبر من جديد . .

فالعبرة العميقة فى هذا العرض هى الدرس الموضوعى للنكسة ، والنصر فى كل موقعة ، لتأكيد مقومات النصر ، وتجنب أسباب النكسة . .

وهذا الكفاح الطويل بانتصاراته ونكساته ، هدفه إشاعة روح الخير وإقرار السلام ، واجتذاب أكبر عدد ممكن من الناس إلى جانب الخير : يتوبون عما كانوا فيه من سوء ، ويبذلون فى المجتمع جهداً يعوض ما بذلوا من أجل الشر قبل إيمانهم . . ومع فتح هذا الباب سيقبل أقوام على الدخول فيه ، ويعرض آخرون مصرون على ما هم فيه من محاربة للحق وأهله .

فمن أقبل غفر الله له . ومن أعرض عذبه الله بأيدى المؤمنين . . والمؤمنون فى هذا قُوى تنفذ إرادة الله بإقامة شريعة العدل والحق فى الدنيا . . هذا أمره وإرادته . وفى هذا نقرأ الآيات التالية بعد ذكر غزوة بدر : « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم

فإنهم ظالمون . ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم»[١] .

الأساس الاقتصادى للمجتمع الجديد :

ولكن مهما يكن من أمر النصر أو النكسة فإنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإعداد الحربى . . ولابد للإيمان من أن يتجسد فى أسلحة ومعدات وخطط تنفيذ . . وهذا الإعداد بدوره يحتاج إلى قاعدة اقتصادية قوية تستطيع أن تمد الجيش المحارب .

وقاعدة الإسلام فى المدينة ترى قوة اليهود فى عوالى المدينة الجنوبية الشرقية : بنى النضير وبنى قريظة . . وترى قوة قريش التجارية ، وكيف استطاع هؤلاء وهؤلاء أن يثروا وأن يجمعوا المال، وأن يحولوا المال إلى سيوف ورماح ودروع ورباط وحصون .

والمنطق التقليدى كان يدعو إلى أن يأخذ المسلمون بالأساليب نفسها التى يأخذ بها اليهود وقريش من جمع الثروة السريعة للاستعداد للمعركة المقبلة . .

ولكن المجتمع الجديد لايقوم على استغلال الإنسان للإنسان، وهو يربط بين أهدافه النبيلة ووسائله النبيلة .

من أجل هذا تأتى مباشرة — بعد توضيح الأهداف العامة

---

(١) سورة آل عمران : ١٢٨ — ١٢٩ .

للكفاح – آيات تتعلق بالربا ، وكان مصدراً رئيسيًّا من مصادر الثراء لفريق من الأغنياء على حساب الفقراء والمحتاجين . .

شرف الحرب وشرف العمل ينبعان من مصدر واحد هو شرف العقيدة والقيم الجديدة التى يرسيها الإسلام فى المجتمع الجديد . .

« يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التى أعدت للكافرين . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون »[١] .

ثم ماذا ؟

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين »[٢] .

لقد استعانت قريش على حرب المسلمين بأموال جاء بعضها من الربا . . ولاينهض مبرراً لاستغلال الإنسان للإنسان : أن يكون المجتمع فى حاجة إلى المال ، يحصل عليه من أى سبيل لينفقه على الدفاع عن وجوده ومبادئه .

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٠ – ١٣٢ (٢) سورة آل عمران : ١٣٣–١٣٦ .

بهذا يبدو الارتباط الوثيق بين الوسيلة والهدف ، بين الاقتصاد والحرب ، بين العلاقات الاجتماعية للأفراد والمهام الملقاة على عواتقهم .

وهذه الآيات أول ما نزل فى تحريم الربا . ونزلت آيات سورة البقرة بعدها . بل هى آخر آيات الأحكام نزولا . والمراد بالربا فيها ربا الجاهلية المعهود عند المخاطبين عند نزولها.[١] وكان أكلهم الربا فى الجاهلية أن الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال إلى أجل ، فإذا حل الأجل طلبهُ من صاحبه . . فيقول الذى عليه المال : أخّر عنى دينك وأزيدك على ذلك ، فيفعلا ذلك . فذلك هو الربا أضعافاً مضاعفة . ونهاهم ربهم فى إسلامهم عن ذلك[٢].

والتقوى المطلوبة هنا منع استغلال الإنسان للإنسان وهذا مدخل إلى الفلاح . .

ويكرر ربنا الأمر بالتقوى ، ثم يأمر بطاعة الله وطاعة رسوله . . أربعة أوامر متتابعة خاصة بمنع الاستغلال :

١ — لا تأكلوا الربا ٢ — واتقوا الله ٣ — واتقوا النار

٤ — وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون .

كل هذا ليرسى . اقتصاداً جديداً للمجتمع الجديد المؤمن المجاهد الرحيم . .

---

(١) تفسير المنار ٤ : ١٢٣

(٢) تفسير الطبرى ٧ : ٣٠٤ .

وترتبط خواتيم الآية : « لعلكم ترحمون » . . بصدر الآية التالية : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » . .

تكرار للفظ التقوى . . ومسارعة تعطى الصورة الحسية للرغبة الصادقة . . فأنت تبتعد عن العذاب وتتقيه ، وتسارع إلى مغفرة من ربك وجنة ، ويعطيك القرآن بعد هذا صورة حية تكاد أن تلمسها لهذه الجنة : « عرضها السموات والأرض » .

ثم تعود بك الآية بعد هذا مباشرة إلى الأعباء العملية التى ينبغى أن تواجهها فى المجتمع الجديد : « الذين ينفقون فى السراء والضراء » .

فالحديث عن الاقتصاد موصول . وإذا كانت الآيات السابقة تعرض للإيرادات . . فهذه تعرض للمصروفات . . وتجعل الصفة الأولى للمؤمن أن ينفق فى السراء والضراء . فى يسره وعسره . وهو يتحلى إلى جانب ذلك بقدرته على ضبط نفسه وكظم غيظه .. بل إنه ليرتفع فوق ذلك إلى العفو — إلا فى حقوق الله والناس — والله يسمى هذا إحساناً ويحب من يتحلى بهذه الصفات جميعاً .

الذى يجمع بين هذه الصفات قدرة عالية على ضبط النفس ، فلا تتطلع إلى مال حرام من الربا . وهى تنفق المال الحلال ، فى سرائها وضرائها . وهى قادرة على كظم الغيظ . وهى قادرة على العفو عن المسىء ؛ وفرق كبير بين العفو القادر والعجز الذليل . .

ولكنها مع هذا قد تخطئ أو تظلم نفسها . . وليس فيها إصرار على خطأ ، وفرق كبير بين الخطأ والانحراف . فى هذه النفس المؤمنة إنابة دائمة إلى الله تعالى وتوجه إليه . . والله يقبل منها هذا ويتقبلها فى الصالحين وذلك قوله تعالى : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » .

بهذا تربط الآيات الكريمة بين غزوة أحد وسوابقها التاريخية فى بدر ، وتقارن بينهما ، ثم ترتفع بنا إلى الهدف الكبير من الصراع لتربط بين الأوضاع الاقتصادية والحربية للمجتمع الجديد وأخلاقياته ، وتحذرنا من أى نوع من أنواع استغلال الإنسان للإنسان، وترد الأمر والجزاء إلى الله تعالى . .

هذه الصورة المتكاملة للمجتمع الجديد هى التى يوجه ربنا إليها الخطاب فى عرض دروس النكسة التالية .

قوانين اجتماعية

وتنتقل الآيات الكريمة بعد هذا إلى تأكيد قاعدة عريضة لسير التاريخ والصراع بين قوى الخير والشر فيه فيقول تعالى : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

هذه الكلمة « سنن » من الكلمات العميقة الدلالة التى ينبغى أن نطيل الوقوف عندها فى دروس النكسة .

ذلك لأن أمر الحياة كما يصوره القرآن الكريم ، ليس مجموعة من المصادفات ولاتدفقاً عشوائياً ، لاترتبط فيه النتائج بالأسباب. ولو كان الأمر كذلك لما أمكن أن يستفيد الإنسان من تجربة ، ولما دعانا ربنا إلى أن ندرس تاريخ الإنسانية، ونسير فى الأرض لننظر كيف كان عاقبة المكذبين .

هناك سنن لسير المجتمع ، وقوانين اجتماعية ينبغى أن يدرسها الإنسان ، وأن يرحل فى طلبها ليضيفها إلى ما بين يديه من تجارب

وأن يتعمق التاريخ ليضيف الماضى إلى الحاضر .

هناك إذن توسع مكانى وزمانى فى الدراسة ، يستهدف معرفة وتعميق وَعْينا بسنن الله فى الحياة ، وما تسير عليه من قوانين ، وما يقوده إلى النصر وما يسوقه إلى الهزيمة .

ويعقب السيد رشيد رضا على هذا بقوله(١): « إن إرشاد الله إيانا إلى أن له فى خلقه سنناً يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علماً من العلوم والفنون التى أرشد إليها القرآن بالإجمال . وبينها العلماء بالتفصيل عملا بإرشاده كالتوحيد والأصول والفقه » .

والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم . والقرآن يحيل عليه فى مواضع كثيرة . ثم يذكر السيد رشيد بعد هذا قول الإمام محمد عبده : «وإننى لا أشك فى كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن وعالمين بمراد الله من ذكرها ، يعنى أنهم بمالهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم ومن التجارب والأخبار فى الحرب وغيرها ، وبما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط ، كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى ، ويهتدون بها فى حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم . وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم النظرى المحض . . ولما اختلفت حالة العصر احتاجت الأمة إلى تدوين علم الأحكام والعقائد وغيرها وكانت محتاجة أيضاً إلى تدوين هذا العلم ولك أن تسميه علم السنن الإلهية

(١) تفسير المنار ٤ : ١٣٩ .

أو علم الاجتماع أو علم السياسة الدينية . سم بما شئت فلاحرج فى التسمية .

« والله سبحانه وتعالى يرشد إلى معرفة سننه فى الخلق ، فى مواضع عدة من كتابه فهو يقول عن غزوة بدر : « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين »[١].

ويقول عن أحوال الأمم مع أنبيائهم : « لايؤمنون به وقد خلت سنة الأولين »[٢].

ويقول : « فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا »[٣].

فهى إذن سنن لاتتبدل ولاتتحول . فما هى هذه السنن؟

لو أخذنا فى دراستها لاتجه البحث بنا إلى غاية موضوعية أخرى غير ما نستهدف من هذه الدراسة فى أبعادها المنهجية . ولذا سنكتفى بدراسة السنن المرتبطة بها على هدى من الآيات الكريمة من سورة آل عمران :

منهج فى البحث :

وأول ما توجهنا إليه الآيات ضرورة المبادرة إلى البحث : « قل سيروا فى الأرض » . اطلبوا هذا العلم حيث يكون ، ولو نزحتم من أجل

(١) سورة الأنفال : ٣٨ .
(٢) سورة الحجر : ١٣ .
(٣) سورة فاطر : ٤٣ .

ذلك عن أوطانكم و دياركم . . عامل الحركة هام هنا . . فليس المقصود تأملا داخليًّا واستبطاناً أو مناقشة مع أصدقاء فى جلسة هادئة وادعة فحسب، ولكن المقصود همة فى التحصيل تدعوك إلى السير فى الأرض بحثاً عن هذه السنن . .

وثانى ما توجهنا إليه الآية هو النظر . . النظر بعد السير لا قبله . . فأنت لا تخرج إلى الدراسة بفكرة مسبقة فى ذهنك ، وإنما تبدأ بتحصيل الحقيقة فتنظر فيها . أنت لا تفصل بين جمع الحقائق والنظر فيها وتفسيرها . ومن أجل ذلك قال لنا ربنا : « سيروا فى الأرض فانظروا » ولم يقل سيروا فى الأرض ثم انظروا . الأمر ترتيب فورى لايحتمل التراخى . وكيف يكون للتراخى مجال فى موقف البحث انتصاراً على نكسة وصعوداً منها إلى مستوى المسئولية المتجددة ؟ !

وإنك فى دراستك تربط بين الحقائق وصولا منها إلى نتيجة ، دون وقوف عند أمشاج غير متكاملة ؛ فدراستك هادفة ، واقرأ فى هذا قول الله تعالى : « فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . أنت تدرس التجربة كاملة وتضيف إليها من أبعاد الزمن وأعماق التاريخ تجارب وتجارب ، لتصل منها جميعاً إلى سنن الله أو قوانين المجتمع .

والخطاب فى الآية موجه إلى المؤمنين لايختص به أحدهم . مثله فى ذلك مثل الآيات السابقة المتعلقة بتكوين المجتمع. وهذا العموم فى التوجيه الإلهى يستهدف تكوين قاعدة واعية فيها مبادرة إلى كشف

وتوضيح الأسس العلمية لما بعد النكسة ، على هدى من الجهد الذاتى والنظر الموضوعى ، للوصول إلى نتائج إيجابية صالحة للتطبيق على ما بين أيدينا من مشكلات.

من العلم النظرى إلى التطبيق العملى :

من أجل ذلك يعقب ربنا على آيات السير فى الأرض بحثاً عن سنن الله وقوانينه فى المجتمع فيقول : « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

فى الآية شقان :

الأول : بيان للناس . .

الثانى : هدى وموعظة للمتقين .

فى هذا البحث عن قوانين المجتمع بيان للناس . هو علم يستطيع الإنسان الوصول إليه ما اتخذ إليه سبيلا . ولكن المؤمن عليه واجب آخر وراء العلم هو أن يتخذ منه هدى وموعظة . . أن يصل هذا العلم إلى مكامن القوة التى تؤثر فى قلبه وفكره . . فى قلبه بالموعظة وفى فكره بالهدى والاتباع .

وشمول الخطاب للناس وللمتقين فى أى زمان ومكان يحمل على القول باطراد القانون إذا ما توافرت مقدماته.

من أجل ذلك لم يكن ليشفع للصحابة فى غزوة أحد، مجرد وجود

الرسول بينهم ، أو أنهم على حق لينتصروا . ولكن لابد من اتخاذ الأسباب المؤدية إلى ذلك ، واتباع دقيق للخطة السليمة التى انتهوا إليها بعد مشاورة . أما أن تخالفوا عن أمر الرسول وتكشفوا ظهر الجيش فلابد أن يغير عليكم العدو وينال منكم ، وإن كان الرسول بين أظهركم .

ولقد كنت أسمع من بعض الأصدقاء بعد النكسة : أليس فيها صالحون ؟ ألا يرحم الله الصغار والضعاف — لماذا نال منا أعداؤنا ونحن على الحق وهم على الباطل ؟ أيرضى ربنا بتشريد المشردين وطرد الأبرياء أصحاب الحق من أرضهم وزرعهم وديارهم التى عاشوا فيها ، وعاش فيها آباؤهم وأجدادهم ؟

وتأتى آيات الله مبينة سننه فى خلقه : « إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[١].

هذه إحدى سننه والله يأمرنا : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »[٢].

بل إن الصحابة فى أحد تساءلوا عما حدث لهم . . وكيف يحدث والرسول بينهم ؟ وتأتى آيات الله موضحة هذا التساؤل ، مجيبة عنه « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنَّى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شىء قدير »[٣].

نعم . إنه من عند أنفسكم . فأنتم الذين خالفتم عن أمر الرسول ،

---

(١) سورة الرعد : ١١ (٢) سورة آل عمران : ١٣٧ .
(٣) سورة آل عمران : ١٦٥

وكشفتم ظهر الجيش أنتم الذين سعيتم بأنفسكم إلى الهزيمة ، عندما امتدت أعين بعضكم إلى مغانم الغزوة ، فحملت أيديكم المتاع ، وتركت السلاح. ولكنكم فى بدر أصبتم من المشركين سبعين قتيلا وسبعين أسيراً ضعف عدد الذين استشهدوا منكم فى أحد ..

فى بدر أخذتم بأسباب النصر فجاءكم النصر من عند الله ..

وفى أحد سعيتم بأنفسكم أولا إلى النصر فنصركم الله ، ثم خالفتم عن أمر الرسول فأصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها (فى بدر) ، ثم تتساءلون بعد هذا عن السبب ، وأنتم السبب . اقرءوا قول الله : « قل هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شىء قدير » . هذه سننه وقوانينه وفيها تتجلى قدرته العادلة .

من قوانين النصر أيها الجندى أن تحرص دائماً على سلاحك . لا تشغلك عنه حتى الصلاة . لا تضعه إلا إذا خفت عليه من مطر أو أعجزك عنه المرض فيقوم بالأمر الأصحاء القادرون .. عينك على سلاحك ولو كنت بين يدى ربك . واقرأ فى هذا قول الله تعالى : « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك ، وليأخذوا أسلحتهم ، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ، ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا

أسلحتكم . وخذوا حذركم ، إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً»[١] .

هذه هي الآية التي تحدد العلاقة بين الجندي وسلاحه في الميدان . آية وحيدة تأمرك أيها الجندي بأن تحمل سلاحك وأن تأخذ حذرك حتى وأنت بين يدي الله في الصلاة . . وتأمل تكرار الأمر الإلهي . وليأخذوا حذرهم . . وخذوا حذركم . . وتأمل هذه الرغبة من أعدائك في أن تغفل عن سلاحك « فيميلون عليكم ميلة واحدة » . هجوماً عنيفاً مركزاً . ثم وعد الله تعالى الكفار بالعذاب المهين . ولكن كيف ؟ لاسبيل إلا بالتطبيق الدقيق الصارم لهذه الأوامر ، وهي من قوانين النصر . ولا نصر بدونها .

لا وهن ولا حزن :

والله يأمرنا أمراً صريحاً بعد أن لفت أنظارنا إلى قوانين النصر والهزيمة وسننه في المجتمع فيقول : « ولا تهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» . . والوهن كما وضحه الرسول عليه الصلاة والسلام هو « حب الدنيا وكراهية الموت » وذلك حينما تمتلئ عين الإنسان بزهرة الحياة ، فيجبن عن لقاء عدوه و يصبح المجتمع — مع الكثرة — كما يقول الحديث الشريف : « غثاء كغثاء السيل » .

الوهن هو ذلك الضعف : النفسي عن تحمل المسئولية التي يجب أن

---

(١) سورة النساء : ١٠٢ .

تحملها أمة لتفرض فى العالم وجودها ، وتستطيع أن تنال حقها . .

هذا أول ما نهانا عنه ربنا بعد النكسة . .

ونهانا عن الحزن . . ألا تضيع منا نفوسنا فى زحمة الآلام على ما مضى .

نهانا ربنا بعد النكسة عن هذين الأمرين معاً : الوهن والحزن . ثم ذكرنا بحقنا الذى من أجله نجاهد ، وبعدالة قضيتنا ، وبالإيمان الذى نحمله بين جوانحنا ، وإن غطته غيوم من حب الدنيا فقال : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

والمحارب ينال من خصمه ، وخصمه ينال منه . ولا حرب دون تضحية ، ولا ميدان معركة دون شهداء . وأنت تنال من عدوك بقدر استعدادك وصبرك . والغلبة تكون لأفضل الفريقين استعداداً وصبراً ، وإن لم يكن على حق . فهذه قوانين من أخذ بها انتصر ولو كان على الباطل . العاقبة للمتقين ما استمسكوا بحقهم وعملوا له ، وإن طال الطريق . وعلى طريق الجهاد والألم تتجلى معادن الرجال وتبرز العناصر الكريمة ، ويتقبل الله شهداء الحق ، ويستحق الجزاء من ربه من بذل الجهد الصابر من أجل الحق . واقرأ فى هذا قول ربك فى الآية التالية : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ، ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن

تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين »[1] .

ثم يوجه إليهم الخطاب مذكراً بما كانوا يتمنونه من لقاء عدوهم واستعدادهم للموت فى سبيل الهدف الكبير فيقول : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون »[2] .

ألم تكن هذه رغبتكم ؟ أن تلقوا عدوكم ؟ ألم يكن هذا هتافكم ؟ أن تبذلوا حياتكم من أجل تحرير أوطانكم واستعادة حقكم السليب؟

نعم . ولكن ما حدث ، كان نتيجة للهوة الواسعة بين الأمل والوسائل المؤدية إليه .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٠ - ١٤٢ .

(٢) سورة آل عمران : ١٤٣ .

« وتلك الأيام نداولها بين الناس ،
« وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين »[1] ،

صراع مستمر :

وبعد أن بين ربنا تبارك وتعالى أن للمجتمع فى سيره وتطوره قوانين ، ينبغى أن يتعرف عليها المؤمنون علماً ، ويتمرسوا بها تطبيقاً ، وضح لهم أول الواجب عليهم : ألا يهنوا ولايحزنوا . ثم انتقل بعد هذا إلى بيان طبيعة الحرب : صراع بينكم وبين عدوكم .. منكم ضحايا ومنهم ضحايا . فيكم جروح وفيهم جروح . . ولكن مع فارق كبير بينكم وبين عدوكم ذكره الله فى أكثر من موضع من كتابه .

فهناك فى آيات سورة آل عمران نقرأ قوله تعالى : « إن يمسسكم قرح فقد

(١) سورة آل عمران : ١٤٠ - ١٤١

مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

فكما بين هنا مكانة المؤمنين أصحاب الحق بقوله : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » خاطبهم كما جاء فى آية سورة النساء : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم . إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون »[1] .

هنا الفارق الكبير بينكم وبين أعدائكم : وترجون من الله ما لا يرجون . . أنتم أصحاب حق تدافعون عنه بالحق ، وتسلكون إليه طريق الحق . ومن إيمانكم بربكم وحقكم تستمدون قوة تعينكم على السير فى الطريق إلى هدفكم .

وأنتم فى هذا السير يدال لكم من عدوكم ويدال عليكم . . ولكن كيف ؟ لقد جاء هذا بعد آية يؤكد ربنا فيها أن لهذا الكون سننه الاجتماعية وقوانينه وهو يقول وقوله الحق : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

ولن يكون الأمر مجرد تغيير فى نتيجة المعركة لا يخضع لقانون تتعاقب فيه الانتصارات والهزائم عشوائياً . . لن يكون الأمر كذلك والله قد حدد للنصر والهزيمة سنناً . . فلا بد إذن من الأخذ بهذه السنن وأنت بذلك أحد اثنين :

---

(١) سورة النساء : ١٠٤ .

إما أن تأخذ بهذه السنة استعداداً وإيماناً وصبراً فى المعركة ، فيكون لك النصر .

وإما متهاون بهذه السنن كلها أو بعضها ، فتدور الدائرة عليك وينتصر عليك عدوك برغم عدالة قضيتك .

وفى هذا الضوء يمكن أن نقرأ قول الله تعالى : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » . . فهى مداولة على أساس من قوانين قال الله فيها : « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

وفى الصراع يتجلى معدن الشعب :

وفى مثل هذه التجارب الشديدة التى تمر بالشعوب يمكن تمييز معادن الأفراد . .

ففى أوقات الهدوء والدعة يستطيع كل فرد أن يدعى أعلى درجات الفدائية من أجل عقيدته ووطنه وقومه . . وقد يكون أقدر على الادعاء من غيره إذا أوتى فصاحة قول أو سيولة قلم . . بل أحياناً يكون أقدر على هذا إذا أجاد التزلف والتقرب . . وقد حذرنا نبينا عليه الصلاة والسلام من هذا الصنف من الناس فقال : « أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان » . إنسان يخفى فى نفسه ما لايبدى ، وعنده من القدرة على القول ما يجعل بين حقيقته والمجتمع ، ستاراً كثيفاً لايمكن النفاذ منه إلى دخيلة نفسه . . هذا الإنسان الماهر بالنفاق ، كيف السبيل

إلى معرفته ؟ والمؤمن العامل الذى يفدى وطنه حقًا ولكنه مستتر بإيمانه وإخلاصه ، ولايطالب بثمن الإيمان ولاخدمة المجتمع . . ذلك المناضل العف الطاهر القلب واليد واللسان . . ذلك التقى الخفى الذى يستره التواضع ، ويشغله العمل عن الإعلان عن العمل ، ويستغرقه الإخلاص والإنتاج فلا يتحدث عن الإخلاص والإنتاج . . كيف نميز الفرد الذى يشبه الفلين والذى يستطيع أن يطفو على سطح أية موجة ، عن الجواهر التى تطويها أعماق هذا الشعب ؟ نعم كيف ؟ من هنا تتجلى أهمية التجارب العميقة التى تمر بها الشعوب ، والتى يبدو فيها إيمان المؤمنين يقة ما تنطوى عليه النفوس من جوهر أصيل أو زيف لاينفع الناس . .

قص على صديق عائد من سيناء قصة جندى أوى إلى بيت سيدة عربية عجوز ، بعد أن طارده اليهود وأرادوا أن يقبضوا عليه حيًا أو ميتاً . فأدخلته المرأة الكريمة بيتها ، وأمرته ألا يتكلم أو يعترف مهما تكن الظروف ، وضمته إلى أولادها . . وبعد فترة جاء من يبحثون عنه فأنكرت العربية المؤمنة وجود غريب فى بيتها . . فأمرها الإسرائيلى أن تصف أولادها من بنين وبنات فوصفتهم وبينهم الجندى . . فقال : أخرجى الغريب منهم . ولم تكن الملامح متباعدة بين الأبناء . شىء من لطف الله وقدره . فقالت الأم العربية : كلهم أولادى ولاغريب بينهم . . فقال الإسرائيلى : إذا لم تخرجى الغريب قتلتهم جميعاً . . وأصرت المرأة على موقفها . . فلما رأى منها الإصرار ، تهيأ لقتل الأولاد

فهجمت عليه باسطة ذراعيها لتحمى أولادها .. وكلهم أولادها . . ورأى الإسرائيلى منها إصراراً لم يملك حياله إلا الانسحاب . . وماذا يفعل هو لو قتل المرأة وهاجمه أولادها جميعاً ؟ !

قدمت المرأة نفسها فداء لم يملك حياله العدو إلا أن ينسحب . ومرت لحظة رهيبة تجلى فيها معدن أصيل من تربية أمتنا على أساس من إيمان راسخ متين . ونجت الأم ونجا الجندى والأبناء . فعلى أمنا منا سلام . ولها منا حيث تكون ، أكرم ما يحمله جيل لجيل من عرفان جميل . ولها منا حيث تكون ، عهد أن ندعم هذه القيم الأصيلة التى عاش بها شعبنا وحفظ وجوده عندما حفظ دينه ومقوماته وفاعليته . .

هذا الشعب الذى خرج بعد معركة رأس العش[1] يستقبل الدبابات ، وتقوم أمهاتنا وأخواتنا بغسلها بأيديهن عرفاناً بجميلها فى معركة . . ويحنين عليها حنو المرضعات على الفطيم . ويعتززن بها اعتزاز الجندى بسلاحه والأم بولدها . . الذى يحمى وطنه وأهله .

وفى هذه الصورة نستطيع أن نقرأ قول الله تعالى عن غزوة أحد: « وليعلم الله الذين آمنوا » .

والله بكل شىء عليم . . وإنما العلم هنا إبراز حقيقة المؤمنين فى

---

(١) دارت هذه المعركة بين القوات المصرية والإسرائيلية فى يومى ٢ و ٣ يوليو ١٩٦٧ على الضفة الشرقية لقناة السويس ، جنوب بور فؤاد باثنى عشر كيلو متراً وانتصرت فيها قواتنا وأجبرت العدو على الانسحاب بعد تدمير مدرعاته .

مجتمعهم وفى أنفسهم . . ليعلم المؤمنون مدى إيمانهم . . وليعلم المجتمع مدى إيمانه . .

لم تكن لولاغزوة أحد لتتجلى صنوف الناس فى المدينة : المنافقون الذين عادوا بثلث الجيش . المؤمنون الذين هموا بالعودة ولكنهم عادوا إلى أماكنهم وثبتوا مع الرسول ، فى المعركة ، الرماة الذين خالفوا عن أمر الرسول فكانوا السبب الأول فى النكسة ، ودفعوا ودفع إخوانهم الثمن الغالى لتتحول النكسة إلى نصر ، المؤمنون الذين ثبتوا مع الرسول وبايعوه على الموت وعاشوا جميعاً . المؤمنون الذين استشهدوا فى المعركة دفاعاً عن دينهم وعقيدتهم وقائدهم ووطنهم ، الجرحى الذين عادوا بآلام المعركة وإيمانها ، والأمهات ، والأخوات ، والزوجات والأبناء ، والثكالى والأرامل . . كل هذا الحصاد الضخم من التجربة بعد أحد .

ونعود إلى قوله تعالى : « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء » .

ولنتأمل قوله « ويتخذ » . . هنا نجد الاختيار الإلهى ، فهو أصفى اختيار . . شهداء لأنهم يشاهدون بعد الموت من ملكوت ربهم ونعيمه ما لا يكون لغيرهم . شهداء ببذل أنفسهم فى سبيل الله يشهدون على الناس يوم القيامة . شهداء لأنهم مشهود لهم بالجنة والرحمة . . ولقد خصص لهم ربنا آيات كريمة بعد هذا تبين مكانتهم عند الله جزاء بما قدموا وما بذلوا . وسنعود إليها فى موضعها من البحث إن شاء الله .

والله لا يحب الظالمين :

ويأتى بعد ذكر الشهداء قوله تعالى : « والله لا يحب الظالمين» . . وواضحة هى المقابلة بين االشهداء والظالمين : الأولون يتخذهم الله ، والآخرون لايحبهم الله . .

والظالم من ظلم نفسه أو ظلم الناس . . والرسول يعلمنا فى الحديث القدسى الذى يرويه عن ربه : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » .

والظلم هنا يشمل مخالفة الأمر أو النهى والخروج عن سنن الله فى كونه . فأنت تظلم نفسك إذا كان عليك أن تعلم ولم تعلم . . أو تعمل ولم تعمل . . أنت تظلم نفسك وقومك إذا ما جاءك الأمر ، فلم تتدبره ولم تنفذه بدقة ووضوح رؤية وإخلاص . . أنت تظلم نفسك إذا حملت من المسئولية ما لا تستطيع عملياً أن تفى به . والأمانة تقتضيك أن تكون صريحاً واضحاً مع نفسك ورئيسك وزميلك ومن يتلقى الأمر منك . .

والمسألة ليست مجرد إيمان أو إخلاص . . ولكن فيها أيضاً قدرة على تحمل المسئولية . . الطيار لابد من كشف دقيق على مستواه الصحى . رجال الصاعقة لابد لهم من كفاية بدنية وعقلية ممتازة إلى جانب الإيمان والإخلاص . . ومن الظلم كل الظلم أن تقبل فى صف هؤلاء

من تقعد به صحته عن العمل وإن كان يملك من الإيمان أروعه . وهنا كانت أهمية وحتمية الاختيار .

كذلك أنت لا تستطيع أن تعطى المسئولية إنساناً لا يقدرها ، فأنت تظلمه وتظلم قومك وهو يظلم نفسه . والعدل كل العدل أن يحمل الإنسان من المسئولية ما يطيق . وما أكثر ما يطيق الإنسان لو كان مؤمناً . . والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . فليكن توزيع العمل على أساس من القدرات الحقيقية للأفراد فهذا هو العدل ، وما سواه ظلم يعود ضرره على الفرد والمجتمع . .

بهذا يتجلى شمول معنى قوله تعالى : « والله لا يحب الظالمين » فهو لا ينصب فقط على ما يقع علينا من ظلم أعدائنا ، ولكن يشمل أى تقصير من قادر فى مستويات المسئولية . وكل فرد منا مسئول عن عمل .

وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين :

وتأتى بعد هذا آية أخرى تؤكد المعنى السابق فى قوله تعالى : « وليعلم الله الذين آمنوا » ولكنها هنا أعمق وأرحب وهذا قوله تعالى : « وليمحص الله الذين آمنوا » .

والتمحيص هو التخليص من كل عيب . . ولغوياً محص الذهب بالنار خلصه مما يشوبه .

فالتجربة إذن تخليص للنفوس مما علق بها . . هى درس إلهى ينظر به الفرد إلى نفسه ، والمجتمع إلى نفسه ، وتتحدد فيه نواحى الضعف التى يكون قد غفل عنها ؛ ولعل الله فى وسط هذه المؤامرة الضارية التى أحاطت بنا « أراد أن يضعنا موضع الامتحان ليرى هل نستحق ما أنجزناه . وهل نحن قادرون على حمايته . وهل نملك شجاعة الصبر والصمود أمام المحنة ؟ ولعل الله عز وجل أيها الإخوة أراده أيضاً درساً لنا ، يعلمنا ما لم نكن قد تعلمناه ، ويذكرنا ببعض ما يمكن أن نكون قد نسيناه ، ويطهر نفوسنا من شوائب لحقت بنا وعيوب يجب أن نتلافاها ، ونحن نبنى مجتمعنا الجديد ؛ وينصرنا إذا عقدنا العزم على النصر ، ويفتح طريق ا لحق أمامنا ، إذا استطعنا أن نضع أنفسنا على طريقه الطويل » .

هذا التوجه إلى الله والإنابة إلية كما جاءت فى خطاب الرئيس جمال عبد الناصر يوم ١٦ من ربيع الثانى ١٣٨٧ — ٢٣ يوليو ١٩٦٧ بجامعة القاهرة ،إنما هى الاستمداد من الله بعد النكسة ، والتطهر من الشوائب والعيوب ، والعزم على السير فى طريق الحق الذى يفتحه لنا ربنا إذا استطعنا أن نضع أنفسنا على طريقه الطويل. . وما أطول طريق الحق وما أشقه ، وما أوفر ثمراته فى الدنيا والآخرة !! . .

ومع تمحيص المؤمنين تأتى هزيمة الأعداء هزيمة ساحقة ، تجد تصويرها فى الجزء الأخير من الآية : « ويمحق الكافرين » . . محق

هو ذهاب الضوء والنور . . وجود بلا أثر . . وبقاء لاقيمة له . وما قيمة القمر وهو فى المحاق ؟ موجود ولا نور له . كذلك أعداؤكم ، إذا ثبتم على طريق الحق ، وعملتم له عملا هو تمحيص الإيمان بعزماته وشدائده وتبعاته الثقال ، التى لايحملها إلا الرجال ، سيكون من وراء ذلك محق الأعداء وانتصاركم عليهم . .

طريق طويل ولكن لا طريق سواه إلى النصر . يسير عليه الرجال . وعسى الله أن يرى منا ما يحب . منا الإيمان والصبر والعمل . ومن ربنا النصر والتأييد . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

الاستعداد للمعركة
بين الأمل والمواجهة العملية

بين الأمل والعمل :

يقول الله تعالى : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون »[1].

والفرق بين قول بعض الصحابة قبل المعركة ، وتصرفهم فى أثنائها ، هو الفرق بين الأمل والمواجهة العملية .

فرق كبير بين أن تلقى عدوك وأن تكتب فى ذلك وتخطب به وتدعو الناس إليه ، وبين المعركة بروعتها وجبروتها ، وما تلقيه عليك من أعباء ثقال .

لقد كنتم بعد بدر تودون لقاء عدوكم . . فاستعد للمعركة استعداداً ضخماً ، برجاله وفرسانه ودروعه وحديده ورماته . ووزع أعباء المعركة بدقة . . وجاء وهو يعلم ما أصابه فى بدر ، فاستمد من الهزيمة قوة

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٣

وصلابة دعته إلى بذل المزيد من الجهد . . كان يعلم أنه يقبل على معركة قاسية فاستعد لها .

وأنتم . . منكم من خالف عن أمر الرسول فعاد قبل المعركة . ومنكم من خالف عن أمر الرسول فترك موقع الرماة ، وكشف ظهر الجيش . ومنكم من خالف عن أمر الرسول فاشتغل بالغنيمة عن دقة تنفيذ الأمر الصادر إليه .. ومنكم من رأى الهجوم الضارى من الأعداء ، ففر مصعداً فى الجبل ، ثم ثاب إلى رشده ، فعاد إلى المعركة .

كل ذلك سجله ربنا فى كتابه فى دروس دقيقة ، هى عبرة لنا وللأجيال التى تسعى إلى النصر حيث يكون . . سجله ربنا فى صراحة نسمعها فى قوله تعالى واصفاً المؤمنين عندما اشتد القتال وانكشفوا عن الرسول : « إذ تصعدون ولاتلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم » فى آخر الجيش المشتت ! ! هكذا فى موضوعية يسجل ربنا موقف الهزيمة ليكون منطلقاً إلى النصر بعد هذا . .

فرق كبير إذن بين تمنى المعركة ومكابدتها . . بين الحديث عنها وصناعتها . . من أجل هذا جاء تأكيد ربنا للمواجهة وأثرها ، وذلك قوله : « فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » فهى لم تكن مجرد رؤية عابرة وإنما رؤية محققة هادفة تستوعب المعركة بأبعادها العملية . .

ولكن كيف يمكن التقريب بين تصور المعركة ومعاناتها ؟

هنا لا بد من إعداد عملى يعيش فيه الجندى ، فى جو أقرب ما يكون

إلى المعركة العملية ، لكيلا يفاجأ إذا ما رأى الموقف على حقيقته . ولنضرب لذلك مثالا قريباً . .

كلنا يعرف أن الموت حق . . ولكن رؤية الميت غير تصور الموت . . بل إن رؤية المريض فى غرفة العمليات فى أثناء جراحة ، أمر مختلف تماماً عن مجرد المرور السريع أمام المستشفى . . فى حين تجرى العمليات فى داخله . . قل مثل ذلك عن دروس التشريح والتدريب الذى يحتاج إليه طالب الطب ، حتى يسيطر على نفسه وتصبح المشرحة بالنسبة إليه معملا علمياً يستعد فيه لمهمته النبيلة .

بل إنك لتقرأ كتاباً فى التاريخ أو كتاباً عن قضية فلسطين ، فلا يكون لذلك من الأثر مثل مشاهدة عملية لأحداثها وآثارها . . وهل يتأثر الشخص الغريب عن القضية ، كما نتأثر نحن العرب بأى خبر عن قضية فلسطين ؟

من أجل ذلك لجأت الجيوش إلى التدريبات العملية . . إلى أن يعيش الجندى حياة المعركة قبل أن يخوض غمار المعركة ، ويستعد للمعركة نفسياً وبدنياً وعقلياً . . فيكون فى قلبه الإيمان ، وفى يده القوة والسلاح ، وفى عقله العلم الذى يحرك السلاح ويدير المعركة .

لقد قذفت قريش فى معركة أحد بثلاثة أمثال قوتها العامة فى بدر ، وقذفت بأربعة أمثال قوتها من الخيل ، وأدخلت عنصر القناصة الذين

يتصيدون القادة ، ولاعمل لهم غير ذلك . واختارت لقيادة الفرسان بطلين كبيرين : خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل . .

فالاستعداد لاشك فى أنه كان كبيراً . وقد استطاع أن يهز جيش المسلمين أول الأمر ، ثم ثبت المسلمون ، ثم خالفوا فانهزموا ، ثم ثبتوا ودفعوا الثمن الغالى .

جهود ودماء كان من الممكن حفظها — لولاقدر من الله سبق — إذا ما اتخذ المسلمون الخط السليم فى تنفيذ أوامر القائد ، والثبات فى المعركة حتى النصر . .

ولاشك فى أن الفجوة بين تصور المعركة ومعاناتها ، كانت من أخطر ما لقى المسلمون فى غزوة أحد بالذات . . وهذا هو الدرس الذى وعوه ونفذوه بدقة حتى فتح مكة ، ولم يستهينوا به إلا فى غزوة حنين فكادت الدائرة أن تدور عليهم مرة أخرى . .

الذى خلق الموت والحياة :

ولكن . . لماذا يخاف الجندى ؟

ونعود إلى الآية مرة أخرى لنقرأها معاً : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ».

كيف يرى الإنسان الموت وهو ينظر ؟ أيراه فى نفسه أم فى غيره ؟ وكيف ينظر وهو يموت ؟ ولماذا يتمنون الموت ؟

لم يكن مجرد الموت هو ما كانوا يتمنونه . . إنما الموت الكريم بعد بذل الجهد من أجل العقيدة . . كانو يتمنون موت الشهداء الذين يبذلون دماءهم أغلى ما يكون البذل . . ومع شرف الغاية وشرف الوسيلة ، حدث ما حدث فى غزوة أحد .

فالثبات فى هذا الوقت هو أغلى ما يصل إليه الإنسان المؤمن . ثبات ومن حوله الموت يتخطف إخوانه فلا يفر . ولا يحاول الإبقاء على حياته ولو ماتوا . وإنما يفديهم . فإذا بكل فرد منهم يحاول فداء من حوله ، فيكون منهم اندفاع الإعصار على عدوهم . وإذا بكل حياة تفديها حيوات كثيرة . وكل جندى يدافع عنه الجيش بأكمله . . أذلك خير أم أن تنفك الرابطة ، فلا يدفع الفرد منهم إلا عن نفسه . . وما أهون !! وأيهما أكرم : أن تحارب وسط أبطال يدافعون عنك وتدافع عنهم ، أم تحارب وسط جماعة كل منهم مشغول بنفسه .

والذين أصعدوا وتركوا الرسول . . لقد كانوا يبحثون عن الحياة والشهداء من حولهم يتساقطون . . فبين الله تعالى أن الأعمار كلها بيده تعالى . وتأتى الآية التالية عنيفة ، تخاطبهم فى أعز إنسان لديهم ، وأقربهم إلى الله . . تخاطبهم فى الرسول الذى ختم الله به الرسالة . . فى القائد الذى اختاره الله لدينه : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه

فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين »[١]..

أنتم أيها المؤمنون . . منكم من فر ثم عاد . . ولكن الرسول ثبت للمعركة . ثبت للموت وأصابته الجراح ، وألقى عليه حجر أوقعه على الأرض . وتتابع الرماة يحاولون قتله ، فدافع عنه صحب كرام من رجال ونساء . ولو وصل الأعداء إليه لاستطاعوا قتله . . هذه سنة الحياة . . ومن قبله استطاع الأعداء قتل أنبياء . . والله جل وعلا ، سجل على بنى إسرائيل : « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون؟»[٢].

الموت حق . . والله يخاطب رسوله فيقول : « إنك ميت وإنهم ميتون »[٣]، يخاطبه بذلك فى مكة ، ثم يعود ليؤكد ذلك فى المدينة .

ولك أن تتصور هذا الموقف . . الرسول عليه الصلاة والسلام بعد أحد . . وآثار الجراح فى وجهه . . رباعيته مكسورة . . الآلام التى يحملها لقتل عمه حمزة ، والشهداء من المهاجرين والأنصار . . المآتم فى بيوت المدينة . . ثم ينزل القرآن ليتلوه النبى على أصحابه وعلى الدنيا : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » ؟

« مات أو قتل » . هذا ما يتلوه الرسول ، وبه آثار الجراح بعد

(١) سورة آل عمران : ١٤٤ .   (٢) سورة البقرة : ٨٧ .
(٣) سورة الزمر : ٣٠ .

المعركة . كان هذا فى العام الثالث للهجرة ، وكانت وفاة الرسول فى العام الحادى عشر للهجرة ، أى بعد هذه الآية بثمانية أعوام .

وتأمل قوله تعالى : « انقلبتم على أعقابكم » وتأمل الحركة التى تصورها الآية ، أى أنكم من هول المصاب لاتستطيعون التماسك وقوفاً وإنما تنقلبون أسوأ ما يكون الانقلاب . . على أعقابكم ! عودة إلى ما كنتم فيه من قبل . ثم يأتى البيان الإلهى فى روعته : « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » . .

وتطير بنا هذه الآية مسرعة إلى العام الحادى عشر ، بعد أن دانت الجزيرة العربية للإسلام ، وخشيته جيوش الروم ، وينتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى ، ويذهل الصحابة للخبر . . حتى عمر بن الخطاب ويتمثل اليقين ، فى سكينته وعمقه ، فى الصديق أبى بكر ، فيتلو على الناس الآية : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . . » وكأنهم سمعوها لأول مرة . من أجل ذلك كان أبوبكر « إمام الشاكرين » الذين يصبرون على المصيبة مؤمنين بقضاء الله وقدره فى خلقه . . « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا »[١]. وفى الآية انتقال من تخصيص الرسول بالقول ، إلى القاعدة العامة التى تنطبق على كل نفس . فلها أجلها الذى حدده لها ربها .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٥ .

إيجابية الإيمان :

وهذه العقيدة الراسخة فى أن الموت والحياة بين يدى الله تعالى ، لها آثارها العملية الإيجابية فى حياة الفرد والمجتمع . .

فالله يعطيهم المثال العملى من حياة الرسول : لقد خصصت له قريش أربعة من مهرة الرماة ، فلم يستطيعوا قتله مع ثباته فى الميدان ؛ وذلك بتأييد الله له برعايته وبالمؤمنين . والذين بايعوه على الموت عاشوا جميعاً ، ولم يقتل واحد فى غزوة أحد . . فلا الفرار كان سبب النجاة ولا الثبات كان سبب الموت ! . .

فالذى عليك أيها المؤمن أن تثبت حيث أقامك القائد فى الميدان ، مؤدياً واجبك ، مؤمناً أعمق الإيمان وأقدسه ، أن الموت والحياة بيد الله تعالى . . .

ومن هنا تبدو إيجابية الإيمان وفاعليته . . وأن يكون مصدر العمل ومنطلقاً إليه . وما دام محيانا ومماتنا بيد الله ، فلا محل للجبن والخوف ، ولاعذر فى الوهن والضعف . . وذلك مع اتخاذ الأهبة والتدريب العملى المستمر الذى يصل ، أقرب ما يكون الوصول ، إلى مستوى المعركة الحقيقية مع الأعداء ، وإعداد العدة التى تزرع فى نفس الجندى الثقة ، والسلاح الذى يعدّه الجندى امتداداً لوجوده ، ودفاعاً عن هذا الوجود ، والتعبير الخارجى عن الإيمان الداخلى . . لايغفل عنه ولا يفرط فيه . .

ويعقب ربنا على هذا بذكر قانون اجتماعى آخر : « ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين»[١].

وليس المقصود بالإرادة هنا مجرد حركة النفس راغبة فى شيء، أو زاهدة فيه . . ولكن اتخاذ الأهبة والاستعداد العملى الموصل إلى نتيجة . . أعداؤكم فى أحد أرادوا الدنيا واستعدوا بسلاحهم وعدتهم . فكان من طبيعة الأمور أن يصلوا إلى هدفهم ما دام استعدادهم وعملهم أدق من استعدادكم وعملكم . . وليس معنى أنكم على الإيمان وهم على الكفر أن تنتصروا عليهم فى كل معركة . . فالنصر فى المعركة محصلة عوامل كثيرة مادية ومعنوية .

كذلك من طلب الآخرة وسعى لها سعيها ، أعطاه الله من ثوابها . وكذلك من طلب الدنيا والآخرة . . طلب الدنيا حلالا كما أمره ربه ، وعمل لها على أساس منهجى سليم ، وهو فى الوقت نفسه يرجو من الله ثواب الآخرة . . فهذا ينال حظه من الدنيا والآخرة . .

فهى قوانين من سلكها إلى الدنيا وصل ، ومن سلكها إلى الآخرة وصل . ومن سلكها إليهما جميعاً نال مبتغاه .

من أجل ذلك جاء تعقيب الله « وسنجزى الشاكرين » الذين يقومون عملياً بشكر نعمة الله عليهم .. عندك العقل فاستخدمه . عندك

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٥ .

السلاح فلا تفرط فيه . عندك الإيمان فدعمه واعتمد على ربك . عندك الهدف النبيل الذى تستمد منه طاقة جبارة تدعوك إلى العمل . إلى هذا الهدف فلتتجه إرادتك ، ولتترجم أنت هذه الإرادة إلى عملى منهجى هادف .

الآخرة هنا ليست ضداً للدنيا ، وإنما هناك سبيل يمكن أن توصلك إلى خيرهما جميعاً : ذلك هو الاستعداد العلمى والعملى المنظم ، على أساس من عقيدتك

سلبيات ثلاث
وإيجابيات ثلاث

من قوانين النصر :

يقول الله تعالى : « وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين »[1].

فى هذه الآيات بيان لبعض قوانين النصر التى وجه الله إليها أنظار المؤمنين بعد غزوة أحد.

كان الرسول عليه الصلاة والسلام بينهم مهدداً بالقتل ، وكاد أعداؤه أن يصلوا إلى ذلك . والمؤمنون حوله يقاتلون : منهم من ثبت ، ومنهم من اضطرب ثم عاد إلى الصف . فبين الله لهم أن هذا الصراع

(١) سورة آل عمران : ١٤٦ - ١٤٨ .

أمر دائم بين الخير والشر . . وأن هذه الدورة التى دارت بينهم وبين أعدائهم سبقتها دورات كثيرة . . سنة الله فى خلقه .

فقول الله : « وكأين من نبى » يدل على كثرة حدوث الأمر .

وقوله : « قاتل معه ربيون كثير » يدل على أن الذين قاتلوا مع الأنبياء كثيرون ، وأن قلوبهم مرتبطة بالله ، يستمدون منه العون والنصر. النبي عندهم قائد يربط بينهم وبين ربهم ، ويقودهم فى صراعهم المقدس ضد الباطل . ومع هذه القيادة الواجبة الاتباع هم « ربيون » ومن تفسيرها : الجماعات الكثيرة والعباد الذين صبروا مع الأنبياء . هم منسوبون إلى العبادة ومعرفة الربوبية ،[1] صلتهم الأولى بربهم ، يعملون من أجله ويستمدون منه العون على ما يلقون ، وهم فى طريق الكفاح .

سلبيات ثلاث :

والله ينفى عن هؤلاء ثلاث صفات :

- ما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله
- وما ضعفوا
- وما استكانوا

وعقب على هذا بقوله : « والله يحب الصابرين»

وعدّ هذا طريقهم إلى النصر . الطريق الذى سار فيه كثيرون

---

(١) تفسير القرطبى ٤ : ٢٢٩ – ٢٣٠ .

واستطاعوا تحقيق أهدافهم . ولنقف قليلا عند هذه الصفات الثلاث :

١ – الوهن يكون فى القلب ، فى العقيدة ، فى الإيمان . فأول ما نفاه الله عنهم أن ما أصابهم فى سبيله، لم يكن ليصل إلى مكامن العقيدة فى نفوسهم .

٢ – الضعف يكون فى الجوارح . وبقوة تقبض أيديهم على أسلحتهم ، ويجاهدون دون ضعف .

٣ – الاستكانة تكون للعدو ، وهى الذلة والخضوع له .

وتأتى هذه السلبيات – إن أتت – متلاحقة . يبدأ الأمر باهتزاز فى عقيدة الجندى . فى مدى إيمانه بالمعركة التى يخوضها . لماذا أقف هنا ؟ ولماذا أحارب ؟ وتأتى المقارنة الجامحة إلى نفسه . . البيت ، الزوجة ، الأولاد ، حياتى . ولماذا أقاتل أنا هنا ؟ ولماذا أوضع فى هذا الموقع ؟ وهل أعدنى قادتى لهذا الموقف ؟ وقد تتغلب على نفسه نوازع الوهن ، فإذا به يحس أن وجوده هنا باطل فى باطل فلماذا يبقى ؟

وينتقل الوهن من قلبه إلى جوارحه . . هذه اليد التى أحمل بها سلاحى لماذا تقبض عليه بكل هذا الإصرار ؟ . . ولماذا الإصرار ؟ بل لماذا أحمل هذا السلاح ؟ وعمن أدافع به ؟ فيهتز السلاح فى يده . .

وهذا العدو أمامى باندفاعه وجبروته . . لماذا أحارب ؟ ولماذا يقع علىّ عبء الدفاع ، وغيرى أولى به منى ؟ وتزحف الاستكانة قاتمة باردة إلى نفسه فيذل ويخزى .

هذه هى السلبيات الثلاث التى نفاها الله جميعاً عن الجندى المؤمن. وبيّن أن مفتاحها الأول فى قلب الجندى ، فى عقيدته ومدى إيمانه بالقضية التى يعمل من أجلها ، وبالمكان الذى يدافع عن ، وبالشعب الذى يحارب من أجله ، وبالمصير الذى سينتهى إليه .

من أجل ذلك كرر الله هذا التحذير لنا . ذكره فى أوائل دراسة نكسة أحد عندما أمر الصحابة أمراً محدداً : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعْلَوْن إن كنتم مؤمنين »[1]، ثم عاد ربنا فى سياق القصة لينقل القضية من حادث فى غزوة إلى قانون عام للنصر ، فى كل زمان ومكان، فقال واصفاً المؤمنين: « فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ».

ومن هذا الثبات فى العقيدة واليقين الصامد والاطمئنان الذى يستعصى على الفتنة والهوى ، يستمد الجندى طاقة جبارة تقوى بها جوارحه على العمل فلا تضعف . ويستمد استعلاء بقضيته ، فلا يستكين لعدوه .

قضية أولى داخلية فى القلب . . وقضية ثانية خارجية فى الجوارح . . وقضية تختم الأمر كله فى الموقف من العدو . . أمقاومة أم استكانة ؟

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٩ .

إيجابيات ثلاث :

وتأتى الآية التالية بعد هذا . . بعد أن تصف المؤمنين الصابرين الذين لم يهنوا ولم يضعفوا ولم يستكينوا . لتحدد الطريق التى سلكوها للوصول إلى هذا المستوى الرفيع من مقاومة عدوهم حتى النصر . .

وكما نفى الله عنهم ثلاث صفات أكد ثلاث خطوات ، الأولى منها ذات شقين ، وذلك قوله تعالى : « وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » . .

١ — والخطوة الأولى ذات الشقين خطوة نفسية داخلية وذلك قولهم : « ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا » فهم يدخلون المعركة أطهاراً يتقربون إلى الله بطلب المغفرة . . ولنذكر أن الله — قبل هذا — وصفهم بأنهم ربيون ، قلوبهم متصلة بالله ، منسوبون إليه جل وعلا . وذلك قولهم لربهم ونجواهم : « ربنا اغفر لنا ذنوبنا » ، ونحن نخرج للقتال إحقاقاً لحق أنت أمرتنا به ، ومقاتلة لعدو باغ ظالم . حين تركنا من ورائنا أهلنا وأولادنا ودائع عندك ، ونحن فى طريقنا إليك ، لانفتخر بجهد بذلناه ، وإنما نتقدم إلى المعركة طالبين منك مغفرة لنا ، أن تجعل قلوبنا أوعية طاهرة ليس فيها إلا النقاء وإلا الحب لك ، وإلا الإيمان بالهدف الذى نعمل من أجله — ياربنا — لانرى مع العمل إلا

أن نطلب منك مغفرة . . بل إننا يا ربنا مهما بذلنا مقصرون ، جهدنا كله قليل إلى جانب ما يجب علينا بذله . من أجل ذلك نناجيك : « ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا » .

بهذه القلوب المنيبة إلى الله كانوا يتقدمون إلى المعارك . يتقدمون إليها وهم يعرفون قداستها . الاستشهاد بين أعينهم ، الإيمان فى قلوبهم ، الحب والإيثار يجمع بينهم ، حماية الأرض التى أنبتتهم ، والماء الذى يرويهم ، والأيدى التى تعمل من أجلهم .. حماية كل غصن أخضر فى الأرض الطيبة . . كل أولئك أمانة يحملونها بقلوب مؤمنة ، وعقول واعية ، وتماسك قوى بين القيادة والجيش القوى المقاتل . .

٢ ــ وكما دعوا ربهم أن يغفر لهم ذنوبهم وإسرافهم فى أمرهم ، مع أنهم خرجوا متجردين لله عاملين من أجله ، يحملون أمانة حماية وطنهم بما فيه ومن فيه ــ فإنهم يدعونه بعد ذلك قائلين : « وثبت أقدامنا » . فبعد تثبيت العقيدة يأتى تثبيت الأقدام فى ميدان المعركة . من الإيمان الراسخ يأتى الموقف الراسخ ، فتقبض اليد فى إيمان وإصرار على السلاح ويقف الجندى مواجهاً عدوه فى صلابة مؤمنة ويندفع إلى هدفه فى إيمان ونظام . .

٣ ــ فإذا ما ثبت الإيمان ، وثبت القدم ، جاء النصر الذى دعوا الله من أجله قائلين : « وانصرنا على القوم الكافرين » .

معادلة :

فالآيتان كأنهما معادلة رياضية : ثلاث سلبيات تقابلها ثلاث إيجابيات :

١ — « فما وهنوا » تقابلها : « ربنا اغفر لنا ذنوبنا و إسرافنا فى أمرنا » .
٢ — « وما ضعفوا » تقابلها : « وثبت أقدامنا » .
٣ — « وما استكانوا » تقابلها : « وانصرنا على القوم الكافرين » .
كل مظهر من مظاهر الضعف الثلاثة ، يقابله مظهر من مظاهر القوة.

من الدعاء إلى العمل :

وإذا نظرنا إلى ما بعد قوله تعالى : « وانصرنا على القوم الكافرين » وجدنا ذكر النصر مباشرة والجزاء . وذلك قوله تعالى : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » .

بعد الدعاء يأتى الجزاء معطوفاً عليه بحرف الفاء « فآتاهم » يدل على التعقيب . هكذا دون فاصل ، كما تأتى النتيجة وراء السبب .

ذلك لأن هذا المنهاج ، من دعاء الله أن يطهر قلوبهم ، ويثبت أقدامهم ، وينصرهم ، لم يكن معزولا عن واقع حياتهم . . وإنما — وهم الربيون الذين ربطوا قلوبهم بالله — يربطون بين القول والعمل . بين العقيدة والقتال . ولهذا جاء ذكر القتال فى مقدمة الآيات الكريمة ،

وذلك قوله تعالى : « وكأين من نبيّ قاتل معه ربيون كثير » ، وما بعد هذا المدخل يبين ربنا الأسلوب الذى اتبعه هؤلاء الربيون ليصلوا إلى النصر . .

وهذا القانون ينبغى أن ندركه مرتبطاً بغيره من قوانين القتال ، التى تربط بين الاستعداد المادى والمعنوى . . هؤلاء الذين يقاتلون لا بد لهم من سلاح ، ومن خطة ، ومن وعى عميق بخطط خصومهم وأساليبهم فى الحرب . واتخاذ المنهج العلمى السليم الذى يوصلهم إلى النصر .

الأمر إذن ليس أمر عقيدة كامنة فحسب ، ولا أمر علم نظرى فحسب ، وإنما هناك تكامل بين العقيدة والعلم ، تطبيقاً لقول النبى عليه الصلاة والسلام : « الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل » .

فليس مجرد الإيمان أودعاء الله يستتبع النصر ، لا ، ولا مجرد عدالة القضية ، وإنما الجمع بين قوة العقيدة وقوة التنظيم وقوة التسليح ، واتخاذ المنهج الذى يجمع القلب والعقل واليد ، ويحرك المجتمع تحريكاً واعياً نحو هدف يؤمن به .

والله سبحانه وتعالى يقول عن هؤلاء : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » . . أى أنه جمع لهم الدنيا والآخرة ، وذكر أنهم بهذا المنهج الذى اتخذوه ، والجهد الذى بذلوه ، قد أحسنوا العمل ، وأحبهم الله لذلك ؛ وذلك قوله تعالى : « والله يحب المحسنين » .

النكسة بين
عمق الإيمان وثورة الشك

وضوح الهدف :

كانت نكسة أحد سبباً فى تعدد الآراء وتصارعها فى المدينة ، تفسيراً لها وتحديداً لأسبابها واقتراحاً لحلول كان من الممكن الأخذ بها. وكان المنافقون فى هذا الموقف بالذات ، من أنشط الناس رأياً فى تعديد أسباب النكسة . . وسط تعديد الأسباب يمكن أن يصلوا إلى التشكيك فى وضع المدينة كله ، وفى خطة المعركة برغم أن المسلمين ارتضوها وبرغم عودة المنافقين دون أن يخوضوا المعركة وعلى رأسهم كبيرهم عبد الله بن أبىّ بن سلول .

عاد المسلمون بجراحهم وآلامهم ، وقد خلفوا وراءهم فى قبور المعركة شهداءهم ، ليجدوا أمامهم وسط الجراح والألم مايرجف به المنافقون :

— ما لنا ولصراع أهل مكة ؟

– لماذا لانتفق مع أبى سفيان ؟
ويقفز سؤال جديد :
– ولكن من الذى يتولى أمر الوساطة بيننا وبين المشركين ؟
ويأتى رد :
– عبد الله بن أبى بن سلول يمكن أن يقوم بذلك . إنه يستطيع أن يطلب لكم الأمان من أبى سفيان . وأنتم تعلمون أن عبد الله ابن أبىّ رفض خطة الرسول ولم يحضر المعركة . والعلاقة بينه وبين أبى سفيان طيبة . . إن قبلتم هذه الخطة حقنتم دماءكم وقد رأيتم عاقبة الصراع مع قريش . . .
– نعم ما رأيكم فى التفاوض مع قريش ، وعبد الله بن أبىّ كفيل بذلك ؟
– ما رأيكم فى تعايش بينكم وبين أهل مكة أو موالاة لهم ؟
– ثم إذا أمنتم أهل مكة فلا خوف بعد ذلك .[1] ولك أن تتصور ما يسمعه بعض الجرحى ، من أهليهم المنافقين بعد المعركة . إن عبد الله ابن أبى بن سلول رأس المنافقين ، لم يرحم ولده من هذا القول المسموم وقد عاد إليه جريحاً بعد المعركة . الابن المؤمن يضمد جراحه ، والأب المنافق يحاول تشكيكه فى الرسول ، وفى الصراع مع مكة ، وفى خطة المعركة كلها .

---

(١) تفسير المنار : ٤ : ١٧٦ .

وماذا تريد قريش أكثر من أن تغشى الغيوم السود نفوس الصحابة؟! وأن يكون فيهم سماعون للسوء ؟

وماذا يحدث لو بدأ مجتمع المدينة طريق المساومة ، ليتولى الأمر فيه أمثال عبد الله بن أبيّ اتصالا بالمشركين ، واتفقاً معهم على المدينة لا من أجلها ؟

هنا يأتى قول الله صريحاً واضحاً يحدد خط السير : « يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين »[١].

فليس وراء الاستماع لقول التردد والضعف، إلاالسير على المنحدر الوعر . . إلى مهادنة العدو . . ثم الخضوع له ولإرادته . لن يكون حالكم غير حال المغلوب مع الغالب . وماذا يود أعداؤكم غير هزيمتكم : نفسيًّا وعسكريًّا ؟ .

والله يبين أن فى هذا خسران الدنيا والآخرة : الدنيا بالخضوع للعدو ، والحرمان من ثمرات الكفاح والنصر والتمكين للعقيدة ، وقيام الحياة على أمن عادل قوى ، وفى الآخرة بثواب الله للعاملين الصابرين المتقين . .

فلا تفكروا أيها المؤمنون فى ولاية أبى سفيان وحزبه . . ولا ولاية عبد الله بن أبيّ وشيعته ، ولاتصغوا لإغواء أعدائكم، يحدثونكم وسط

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٩ — ١٥٠ .

الجراح والألم ، ويوسوسون فى صدوركم بعد النكسة ، ولكن استمدوا من ربكم عوناً ترتفعون به فوق الألم . واستعيدوا ثقتكم فى أنفسكم سيراً على طريق الكفاح . . . « بل الله مولاكم وهو خير الناصرين » .

عودة إلى حديث القوانين الاجتماعية :

ويبيّن الله لهم بعد هذا موقفين واضحين : موقف النصر الأول وموقف النكسة . فيتابع ربنا توجيهه لأصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام قائلا : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين . ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليبتليكم . ولقد عفا عنكم . والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون ولاتاوون على أحد ، والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غمًّا بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون»[1] .

فمع قلة عددكم فى المعركة ، كل منكم كان يقاوم أربعة من المشركين ، فقد قتلتم حملة اللواء من المشركين ، وأوقفتم هجوم الخيل وعلى رأسها

(١) سورة آل عمران : ١٥١ - ١٥٣ .

قائد عبقرى ، هو خالد بن الوليد . واستطعتم أن تضعوا السيف فى رقاب أعدائكم ، وتفرق جيش الكفر أمامكم ، وفروا مذعورين ، وقد ألقى الله فى قلوبهم الرعب ، ولكن كيف ؟

لقد جاء هذا الرعب نتيجة مباشرة لثباتكم وصمودكم فى الجولة الأولى والثانية من المعركة . إنكم لم تغلبوا عدوًّا جباناً . لقد كان هناك صراع مرير بين إيمانكم وكفرهم . . بل بين إيمانكم بربكم وإيمانهم بأوثانهم . وتجلى هذا واضحاً فى مواطن كثيرة من أبرزها الأحداث الأولى فى الصدام بين المؤمنين والمشركين فى غزوة أحد . .

ذلك أن طلحة بن عثمان ، صاحب لواء المشركين ، قام فقال : يا معشر أصحاب محمد ، إنكم تزعمون أن الله يعجّلنا بسيوفكم إلى النار ، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة ! فهل منكم أحد يعجله الله بسيفى إلى الجنة ، أو يعجلنى بسيفه إلى النار ؟ فقام إليه على بن أبى طالب فقال : والذى نفسى بيده ، لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفى إلى النار ، أو يعجلنى بسيفك إلى الجنة فضربه على فقطع رجله ، فسقط فانكشفت عورته فقال : أنشدك الله والرحم ، ابن عم ، فتركه . فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال أصحاب على بن أبى طالب : ما منعك أن تجهز عليه ؟ قال : إن ابن عمى ناشدنى حين انكشفت عورته ، فاستحييت منه[1] .

---

(١) تفسير الطبرى ٧ : ٢٨١ — ٢٨٢ .

فالبيت الواحد يتقاتل بنوه من أجل العقيدة . على يقاتل عثمان ابن طلحة. إصرار من الاثنين على النصر . إيمان من على بربه . وإيمان من عثمان بأوثانه . ويتغلب الإيمان بالله مع المهارة فى الحرب على الشرك . ثم يكف يده حين يرى « الإنسان » ولو كان كافراً ، مضرجاً بدمائه ملقى على الأرض ، يستحى أن ينكشف منه ما يكره فيتركه على حياء . صورة من الإيمان النموذجى الذى يرفع سيفه بقانون ، ويضعه بقانون . الذى لا يعرف التمثيل بالجثث ولامهاجمة الضعاف من النساء والولدان . ولا الغدر الخسيس والتطاول الكاذب .

مؤمنون لم تكن تحركهم أحقاد وإنما تحركهم عقائد . . ولنقارن بين الحرب الشريفة فى بدر ، والتمثيل الشائن بجثث الشهداء فى أحد ، وما فعله بهم مشركو قريش لنرى أن الحماس وحده ، أو الهدف وحده ، لا يكفل للمعركة شرفها ، وإنما مع الهدف سموه ونبله . ومن هنا تأتى القيمة العملية للإيمان بالله تبارك وتعالى فى السمو الإنسانى ، حتى فى ميدان القتال .

هذا نموذج من الصفحة الأولى من غزوة أحد : اشتداد المؤمنين فى قتال المشركين ، ثبات الرماة على الجبل حتى شلوا حركة الخيل تحت إمرة خالد بن الوليد ، رعب ملأ قلوب المشركين ، وقول الله يسجل شدة المؤمنين فى القتال ورعب المشركين : « سنلقى فى قلوب الذين

كفروا الرعب . . ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم [أى تقتلونهم] بإذنه . . »

صدق وعد الله هنا جاء نتيجة مترتبة على ثبات المؤمنين . . والإيمان هدية الله إلى الإنسانية .

ولكن ماذا حدث بعد موجة النصر الأولى ؟

رأى الرماة أن أصحابهم منتصرون ، وأيديهم فى غنائم المشركين . . وما أكثر ما تجنى الغنائم والمطامع على الجيوش! !

جعل أصحاب عبد الله بن جبير قائد الرماة يقولون : « الغنيمة الغنيمة ! ! . . » .

والقائد المؤمن الملتزم يقول : « مهلا . أما علمتم ما عهد إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ! » ؛ فأبوا . وما بقى معه إلا القليل .

وعينا خالد بن الوليد اليقظى ترقب المعركة، ولا تعترف بالهزيمة ، وإنما تتلمس للنصر فرجة . . وقد حانت . فليهاجم ظهر الجيش بعد أن ترك معظم الرماة الموقع . . ودارت الدائرة على المسلمين .

لقد ذهب الرعب الذى كان فى قلوب المشركين .

وحل الرعب فى قلوب المؤمنين .

لقد ارتدت الموجة ، فصارت تلطم الوجوه المؤمنة ، التى كانت منتصرة وجه النهار ، وأصبح الصحابة ، وقد انفرط عقدهم ، وسط اندفاع قريش . .

ويرتفع صوت : إن محمداً قد قتل . .

وتشتد وطأة الغم على النفوس التى كانت منتصرة منذ قليل . . البعض يجرى مبتعداً عن ميدان المعركة : « لا تلوون على أحد » . يقول ابن جرير الطبرى فى تفسيره فيما يرويه عن قتادة : اصعدوا فى الوادى فراراً ونبى الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم فى أخراهم : إلىّ عباد الله . إلىّ عباد الله[1] .

هذه هى الجولة الثالثة القاتمة . . وهى بعد هذا ، بدء الطريق إلى النصر . . صورة يحدد الله معالمها فى كتابه ، فى موضوعية لا تدع ظلالا ، وإنما تلقى الضوء على كل جنبات الموقف :

« حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم » . . ثلاث صفات تكفى إحداها للهزيمة . . حركة النفس نحو مطامع الدنيا واهتزاز الهدف . الاختلاف فى الرأى وسط المعركة . العصيان الصريح لأمر القائد الذى وضع خطة المعركة ، وقائد الموقع الذى ينفذ أمر الرسول . . « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » . . وكيف ينتصرون وقلوبهم متعلقة بالمغانم . . بالأموال . . بالمتاع . . بما فى أيدى غيرهم ؟ نعم كيف ينتصرون ؟

تقول لى : وما ذنب المؤمنين ؟

ويأتى رد ربنا صريحاً محدّداً قانوناً آخر :

---

(١) تفسير الطبرى ٧ : ٣٠١ .

« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »[1] . فالفتنة إذا جاءت عمّت . . لقد كان أول شهداء الموقف من ثبتوا فى موقع الرماة : عبد الله بن جبير وأصحابه . ولكنهم عند الله شهداء . . وكيف نستطيع عقلا وعملا أن نفصل بين الدنيا والآخرة فى هذا الموقف ؟ الثابت المؤمن يموت ، وصاحب الغنيمة قد ينجو !! كيف يعمل الجندى إذا فقد عنصر الإيمان بالله والجزاء ، أو اهتز الميزان فى نفسه ؟ ! لقد كان على الرماة أن يثبتوا فثبتوا ، وأدوا واجبهم ، حتى دهمتهم الخيل ومزقت جسومهم . . رضى الله عنهم أجمعين ! !

لقد كان موتهم انطلاقة جديدة دفعت غيرهم إلى الثبات والصبر ، وبقوا عند الله والناس أبطالا ، لهم لسان الصدق فى الدنيا والجزاء الأوفى فى الآخرة . .

ونعود إلى بقية ملامح الموقف الأسيف :

« فأثابكم غمًّا بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون » .

وانظر هنا إلى تتابع الغم بعد الغم . وقول الله : « فأثابكم » كأن « ثواب » الخطأ غم من بعده غم . . هذا بعد قوله : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه » .

تتابعت عليهم الغموم الكبار . . الإرجاف بموت الرسول القائد . .

---

(١) سورة الأنفال : ٢٥ .

الخوف من غزو المدينة نفسها والاقتحام على النساء والذرية .

وماذا تكون قيمة الأعراض الزائلة التى شغلتهم بعض الوقت ، أمام المصير الرهيب الذى يتهددهم : ضياع النصر من أيديهم . . شهداؤهم فوق أرض المعركة . . جيشهم انفرط عقده . . كل هذا من أجل مطامع قليلة كانوا منذ قليل يسمونها « غنائم » !!

عندما نظرت عيونهم إلى هذا التافه الضئيل ، اشتغلت به عن القضايا الكبرى : مصير القيادة ، الطاعة ، والالتزام الدقيق بالخطة حتى النصر . .

لقد أغموا رسولهم عندما عصوه ، فأثابهم الله غمًّا بالهزيمة ، وعلمهم ربهم أن يعطوا كل شىء فى حياتهم ، مكانه الطبيعى الذى لا يتضخم به عن حقيقته ، ولا يتضاءل أيضاً عن حقيقته .

المغانم تضخمت فرأوها كبيرة وهى عرض زائل . . الطاعة تضاءلت ، وهى سر النجاح ، حتى ضاعت الجولة التى كسبوها . ضاعت بثمن غال .

وهل تخرج المواقف فى الحروب عن أمثال هذه الموازنات : الثبات حتى الاستشهاد ، أو الفرار من الموت وهو ملاقيهم ؟!

تنفيذ أمر القائد بصراحة وإيمان ، أو التفسيرات التى لا تمليها إلا المطامع للتهرب من التنفيذ !

النظر إلى المصلحة الذاتية فى الغنيمة ، ولو على حساب مصلحة الجيش كله فى النصر . .

من أجل ذلك جاء عرض النكسة موضوعيًّا صريحاً قاطعاً، يحدِّد مواقع المؤمنين الثابتين ، والمؤمنين الذين استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ثم فاءوا إلى رشدهم ، وعادوا إلى الميدان يضحون ويبذلون . ويحدد مواقع المنافقين الذين حاولوا ركوب الموجة ، والسيطرة على زمام الموقف ، لمطامع ذاتية واتفاقاً مع الأعداء ، وبذروا بذور الشك ، وأطلقوا الآراء المسمومة الملساء كأنها الثعابين . فماذا كان موقف الرسول من هذا كله ؟ وماذا كانت آلام القيادة وأعباؤها ؟ وما التوجيه الإلهي لمقابلة هذا كله ؟ . .

الرسول والذين آمنوا معه

هذا هو الفصل الأخير من سلسلة « دروس من غزوة أحد » التى بدأت كتابتها بعد نكسة ٥ يونيو ١٩٦٧ . ولم أكن أظن حين بدأتها أن القول سيطول فيها إلى هذا المدى . وأود أن أقرر — مخلصاً — أن أكثر ما قلت فيها ، لم يكن فى ذهنى قبل النكسة . . لقد كان الألم هو المعلم الثانى بعد الإيمان . ومن أعماق الألم كانت تتفتح أبواب القول ، وتبرز الدروس التى يمكن أن نتعلمها من ماضينا وحاضرنا .

وما زال فى الغزوة كثير يمكن أن يقال وسأكتفى من هذا الكثير بنقاط ثلاث فى هذا الفصل الختامى . . وكل ما أرجوه أن يكون من وراء ذلك ربط بين الفكرة والعمل ، وارتفاع فوق النكسة ، وحافز إلى مزيد من البحث العلمى ، الذى يجمع بين قوة الإيمان وموضوعية الدراسة ويستطيع أن ينقلها بعد هذا ، إلى مجال التطبيق الصاعد إلى الأمل ، برغم الجراح والألم . .

١ – الإيمان بين الإيجابية والسلبية :

كانت نكسة أحد سبباً فى تعدد الآراء حول العوامل التى أدت إليها والعناصر التى صنعتها .

والله تبارك وتعالى يذكر عن بعض من حضَرَ أُحُداً : « وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية . يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ؟ قل : إن الأمر كله لله . يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك. يقولون : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا . قل : لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور »[١] .

ثم يبين وضع الذين خالفوا عن أمر الرسول ، وعادوا إلى الميدان : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ، إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا . ولقد عفا الله عنهم . إن الله غفور حليم »[٢] .

ثم يوجه الخطاب إلى المؤمنين : « يأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزًّى : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا . ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم . والله يحيى ويميت . والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم

---

(١) سورة آل عمران : ١٥٤ .

(٢) سورة آل عمران : ١٥٥ .

لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن مُتم أو قتلتم لإلى الله تحشرون »[١] .

وقبل أن نعرض جوانب من هذه المواقف يمكن أن نرجع إلى مشهد من مشاهد القصة وصف الله تعالى فيه المؤمنين بعدما أصابهم من الغم . . : « ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم »[٢] .

وجاء هذا سابقاً لعرض هذه المواقف المتباينة : من الإيمان العميق والظن ومحاولة تشكيك المؤمنين فى مواقفهم ، وأنهم أوردوا أنفسهم البوار . .

ما دخل النوم هنا ، والموقف كله يقظة قاسية ؟ ما النوم ومن حولهم الدماء والأشلاء ؟ . .

ولقد ذكر المفسرون وأهل السير أن الله أنزل عليهم النوم — حتى إن بعضهم ليغفو وسط المعركة — تخفيفاً للإرهاق الذى لقوه . ولكن ما يذهب إليه الإمام محمد عبده أن ذلك كان بعد المعركة . . كما كان النوم فى بدر قبل المعركة . فالمؤمنون الذين أدوا واجبهم كاملا فى المعركة ، بكل ما فيه من بطولة وإيمان ، عادوا إلى دورهم واستغرقوا فى نوم عميق . نوم الإنسان الذى أدى ما عليه فى يوم عصيب . كان

---

(١) سورة آل عمران : ١٥٦ – ١٥٨ .

(٢) سورة آل عمران : ١٥٤ .

النوم إذن أمنةً ورحمةً من الله . كان انقطاعاً مؤقتاً عن الواقع الدامى الذى يعيشون فيه . ولك أن تتصور هذه الرحمة ، إذا ما علمت أنهم – قبل أن يطلع عليهم نهار جديد – جاءهم أمر الرسول بالخروج إلى عدوهم مرة أخرى فى حمراء الأسد . فالذين استغرقوا فى النوم كانوا أقوى على الخروج إلى العدو . فالنوم كان استعداداً لغزوة أخرى .

والذى يستوقف النظر فى هذا الموقف هو الراحة التى يحسها المجاهد بعد أداء واجبه . لقد ودع الأمس بمسئولياته ، ليستقبل الغد بمسئولياته . . هو فى عمل مستمر من أجل عقيدته .

وتأتى طائفة أخرى عادوا يفكرون فى النكسة : هل لنا من الأمر من شىء ؟ لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا ؟ . .

وتدخل « لو » بكل ما تحمل من تمزق نفسى . . حتى إن بعض المفسرين يذهب إلى أن المقصود بالآية « المنافقون » فى حين يذهب بعضهم إلى أن المقصود بها ضعفاء المؤمنين[1] .

وتعددت الأقوال فيما شغلوا به أنفسهم . فالذين ذهبوا إلى أنهم المنافقون ، قالوا إنهم شغلوا أنفسهم بالحرص على الحياة والخوف من القتل على حين يذهب السيد رشيد رضا إلى أنهم ضعفاء المؤمنين . . وأن قولهم : « هل لنا من الأمر من شىء » إنما يقصدون به رد الأمر

---

(١) انظر الطبرى ٧ : ٣٢٠–٣٢١ والقرطبى ٤ : ٢٤٢ والمنار ٤ : ١٨٦ – ١٨٧.

فى المعركة إلى الله ، وأن النصر والحق متلازمان وظنوا أن ما وقع مناف لحق الدين . . ويأتى رد الله تعالى : « قل : إن الأمر كله لله » لا أمر النصر وحده . . وإنما يجرى النصر والهزيمة وفق قوانين على المؤمنين أن يفهموها ، فيصلوا إلى النصر ، ويتجنبوا الهزيمة . . فأنتم قد اخترتم ميدان المعركة ، وكنتم تستطيعون الانتصار إذا ما اتخذتم له عدته من الطاعة والتزام الخطة .

ويأتى أمر الشهداء والجرحى . . لماذا هذه التضحيات كلها ؟ وتضطرب فى الذهن ثلاثة أصول ينبغى أن تكون واضحة متميزة حتى يعرف المؤمن مكانه الصحيح بين إيجابية الإيمان وسلبيته . .بين قدر الله ومسئولية الفرد . . بين علم الله واختيار الإنسان وبالتالى حسابه فى الدنيا والآخرة :

١ ــ أن الله تعالى خالق كل شىء ، فلا قاهر له على شىء ، وهو القاهر فوق عباده .

٢ ــ أن خلقه وتدبيره إنما يجريان بحسب مشيئته وحكمته ، على سنن مطردة وقوانين ذكر الله أمرها فى كتابه .

٣ ــ أن من سنن الله تعالى وقدرته ، أن يكون الإنسان ذا علم ومشيئة وإرادة ، فيعمل بعلمه ووفق إرادته . ومن هنا كان الثواب والعقاب ، ولا يتعارض هذا مع كمال علم الله تعالى : « هو الأول والآخر

والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم»[١] .

ومن خير ما قرأت فى أمر القضاء والقدر قول فيلسوف الإسلام الكبير المرحوم محمد إقبال: « إن المؤمن الضعيف يحتج دائماً بقدَر الله ، والمؤمن القوى هو قدر الله فى أرضه ، ينفذ الله به مشيئته » فصناعة التاريخ من نصيب الأقوياء ، وما أكرم أن تجتمع القوة مع الحق .

ولقد عالج ربنا هذه القضية ، فى أكثر من موضع ، من سياق العرض القرآنى لغزوة أُحد ، ووجّه الخطاب فيها إلى المؤمنين وإلى المنافقين . ثم بيّن بعد هذا ثواب الشهداء ، وجعله ختام قصة الغزوة . وأكّد مسئولية الفرد والمجتمع : « أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون»[٢]. درجات قائمة على العمل وبذل الجهد وعلى إيجابية الفرد . وبهذا نستطيع أن ندرك أبعاد قوله تعالى : « والله بصير بما يعملون » .

٢ – آلام القائد ومسئوليته :

وإذا رجعنا إلى السياق القرآنى لغزوة أحد ، وجدنا ربنا يوجه الخطاب فى أول حدث الغزوة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فى قوله : « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله

---

(١) سورة الحديد : ٣

(٢) سورة آل عمران : ١٦٢ – ١٦٣

سميع عليم »(١)، ثم يجيء بعد هذا قوله للمؤمنين ، توجيهاً طويلا فى أوامر متلاحقة ، تتعلق بالمسارعة إلى الله ، والتمسك بأخلاق المتقين من الإنفاق وكظم الغيظ والعفو ، مذكراً بغزوة بدر ، وما كان فيها من نصر للمؤمنين وهزيمة للمشركين .

ثم تذكرهم الآيات الكريمة بسنن الله فى الأمم وتعميق الإيمان فى نفوسهم ليرتفعوا به فوق مستوى الألم الذى يحول دون العمل . ويأتى الخطاب عن الرسول بعد هذا : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم »(٢). وبين ربنا أن سنته فى الأنبياء ، جهاد وابتلاء وتمحيص . . هذا شأنهم وشأن المؤمنين معهم . . وتتعاقب الآيات بعد هذا تشرح مراحل الغزوة . . ثم يأتى ذكر الرسول مرة أخرى فى أمره لهم بالبقاء بعد أن أصعدوا : « إذ تصعدون ولاتلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم »(٣) . ويعود إلى خطاب المؤمنين متحدثاً عن أمر الموت والحياة ، ومشكلة القضاء والقدر ومسئولية الفرد . .

ثم يوجه الخطاب بعد هذا مباشرة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام . . يوجهه بعد هذه الرحلة الطويلة مع المؤمنين شرحاً للغزوة وربطاً لها بالقوانين الاجتماعية .

(١) سورة آل عمران : ١٢١ .
(٢) سورة آل عمران : ١٤٤ .
(٣) سورة آل عمران : ١٥٣ .

والخطاب هنا — وفى هذه المرحلة من السياق القرآنى — يأتى لأول مرة ، أمراً مباشراً من الله تعالى إلى رسوله الكريم . .

كان الحديث قبل هذا إخباراً عما فعل الرسول من خروج إلى ميدان المعركة ، أو أمر بالثبات فيها ، أوتذكير بفضل الله عليهم فى غزوة بدر . . أما الآن فنجد الأمر الإلهى الأول المتعلق بهذه الغزوة . . الأمر الذى يوجهه ربنا إلى رسوله . . إلى القائد ليحدد علاقته بالمؤمنين بعد النكسة تعاوناً وتشاوراً من أجل العقيدة والمجتمع . .

ما هو الأمر الأول الذى يوجهه ربنا إلى الرسول ؟ يوجهه بعد هذه الرحلة ، الطويلة العميقة فى أعماق التاريخ ، وأرض الواقع والنكسة ، والشهداء والجرحى ، والفرار والعودة والاضطراب ، ثم الدفاع المستميت عن الرسول وعن المدينة ؟

يقول تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر . فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين . إن ينصركم الله فلا غالب لكم . وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون »[١] .

بالرحمة التى وضعها ربك فى قلبك ، حبًّا للمؤمنين ورأفة بهم ، لنت وترفقت . لقد رأيتهم أمامك يفرون ، ولكنهم عادوا . الذين أصْعَدوا

(١) سورة آل عمران : ١٥٩ — ١٦٠ .

لا يلوون على أحد ، أثابهم غمًّا بغم .. فرحة الغنيمة تحولت إلى أحزان على الشهداء .. الذين خالفوا عن أمرك، دفعوا الثمن غمًّا وضحايا ودماء. معك نفوس تتباين قوة وضعفاً ، وآراء كانت تتعدد ، دون أن يختلف المؤمنون على الهدف ، إن سلكوا إليه أكثر من سبيل . .

رحمة وضعها الله فى قلبك يا محمد ، لنت لهم بها ووسعتهم تحت جناح الرأفة والمحبة . . وبغير هذه الرحمة . . لو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك . .

ولقد أوحى إليك من القرآن ما قرأته عليهم دعوة إلى المسارعة إلى الله ، والإنفاق فى السراء والضراء ، وكظم الغيظ ، والعفو عن الناس . وأنت يا محمد مأمور بذلك كله : هذه صفات مثالية للمؤمنين المسارعين إلى الله . . وأنت — رسول الله — مأمور بذلك أمراً محدداً : « فاعف عنهم واستغفر لهم » .

العفو قد يكون باللسان . . هو قضية ظاهرية ، يكفى فيها قول : قد عفوت . ولكنك رسول الله ، لسانك يعفو ، وقلبك مشغول بالاستغفار لهم . . كن معهم بلسانك وقلبك ؛ لسانك بالعفو وقلبك بالاستغفار .

لقد رأيت عمّك حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله ،صريعاً وقد مثّل به المشركون فبقروا بطنه وانتزعوا كبده . . ورأيت من حولك مصارع الشهداء من المؤمنين ، وأصابك فى نفسك الأذى وعن أمرك المخالفة . . ولكن هؤلاء جميعاً دفعوا ثمن ما حدث ، وأمامك

الكثير من المسئوليات فتألف قلوب أصحابك : « لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم »[١]. كن معهم بعد الجراح بلسماً .. اعف عنهم واستغفر لهم .

ثم ماذا ؟

« وشاورهم فى الأمر »

فليس معنى النكسة أن يفقدوا حقهم فى إبداء الرأى .. يقول السيد رشيد رضا[٢] : « وشاورهم فى الأمر العام الذى هو سياسة الأمة فى الحرب والسلم والخوف والأمن ، وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية . أى دُم على المشاورة وواظب عليها ، كما فعلت قبل الحرب فى هذه الوقعة (غزوة أحد) ، وإن أخطأوا الرأى فيها فإن الخير كل الخير فى تربيتهم على المشاورة بالعمل ، دون العمل برأى الرئيس وإن كان صواباً ، لما فى ذلك من النفع لهم ، فى مستقبل حكومتهم إن أقاموا هذا الركن العظيم : المشاورة ، فإن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد فى الأكثر » هذا بعض ما ذكره السيد رشيد رضا فى أمر الشورى . ويعقب على هذا برأى للإمام محمد عبده : « ليس من السهل أن يشاور الإنسان ولا أن يشير . وإذا كان المستشارون كثاراً ، كثر النزاع وتشعب الرأى . ولهذه

---

(١) سورة الأنفال : ٦٣

(٢) تفسير المنار : ٤ : ١٩٩ .

الصعوبة والوعورة ، أمر الله تعالى نبيه أن يقرر سنة المشاورة فى هذه الأمة بالفعل، فكان عليه الصلاة والسلام يستشير أصحابه بغاية اللطف ويصغى إلى كل قول ويرجع عن رأيه إلى رأيهم »[١] .

والذى ذهب إليه ابن جرير الطبرى فى تفسيره : « إن الله عزّ وجل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه فيما حَزَبَه من أمر عدوه ومكايد حربه ، تألفاً منه بذلك من لم تكن بصيرته بالإسلام (أى عمق إيمانه بالوحى) البصيرة التى يؤمن عليها من فتنة الشيطان » . ويعقب على ذلك بالهدف الأكبر الباقى فيقول : « وتعريفاً منه أمته مأتى الأمور التى تحزبهم من بعده ومطلبها ، ليقتدوا به فى ذلك عند النوازل التى تنزل بهم ، فيتشاوروا فيما بينهم ، كما كانوا يرونه فى حياته صلى الله عليه وسلم يفعله »[٢] .

ويروى الإمام القرطبى فى تفسيره[٣] ما قيل فى أمر الشورى ، ولعل من أجمعها ما جاء عن الحسن البصرى والضحاك قالا : « ما أمر الله تعالى نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما فى المشاورة من الفضل ولتقتدى به أمته من بعده . ثم ذكر بعد هذا أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشورى[٤] منها .

١ – « ما ندم من استشار » .

---

(١) تفسير المنار : ٤ – ١٩٩ – ٢٠٠ .
(٢) تفسير الطبرى : ٧ – ٣٤٥ .
(٣) تفسير القرطبى : ٤ : ٢٥ .
(٤) القرطبى : ٤ : ٢٥١ .

٢ - « ما شقى قط عبد بمشورة ، وما سعد باستغناء رأى » .

ولقد جاء ذكر الشورى فى القرآن ثلاث مرات : إحداها فى الأحوال الشخصية ، وهذه بعيدة عن موضوعنا . والثانيتان ، أولاهما آية مكية فى سورة الشورى ، وذلك قوله تعالى واصفا المؤمنين : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون »[1] ، والثانية ما نزل بعد غزوة أحد فى سورة آل عمران .

جاءت الآية الأولى وصفاً للمؤمنين . . فمن علامات الإيمان أن يحترم بعضهم رأى بعض . . جاءت بين الصلاة والإنفاق . وكل هذا بعد الاستجابة لأمر الله تعالى ، وسط آيات تحدد ملامح المؤمنين والمجتمع المؤمن .. فكما أنهم يقيمون الصلاة .. يتشاورون .. ذلك لأن الشورى نابعة من احترام الفرد للجماعة والجماعة للفرد . . يقول الإمام القرطبى[2] عمن وصفهم الله بهذه الصفات : « هم الأنصار فى المدينة استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثنى عشر نقيباً منهم قبل الهجرة . وكانت الأنصار قبل قدوم النبى عليه الصلاة والسلام ، إذا أرادوا أمراً تشاوروا فيه ، ثم عملوا عليه ، فمدحهم الله تعالى به . . . فمدح الله المشاورة فى الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك » ، فكأن هذا كان تأكيداً قبل الهجرة ، لمظهر كريم من مظاهر الحياة فى المدينة سجله القرآن ودعا المؤمنين إلى تعميقه والسير عليه . .

---

(١) سورة الشورى : ٣٨ . (٢) القرطبى : ١٦ - ٣٦ .

وتأتى الآية الثانية بعد النكسة تأكيداً للشورى ، دون أن يحاول المجتمع بعد النكسة ، أن يتهرب من مسئولياته بإلقائها على القائد ، أو يتخذ القائد منها سبباً لإهدار حق الجماعة فى الشورى . . وذلك لأمر واضح هو أن التغلب على النكسة ، لايكون إلا بطاقات منطلقة إلى العمل مؤمنة به ، ملتفة حول هدفها وقائدها .

وبعد أن أمر الله رسوله بالشورى ، أعطاه حقه الكامل فى القيادة وذلك قول الله تعالى : « فإذا عزمت فتوكل على الله »[1] . فتنفيذك للخطة ، واجبك بعد المشورة . وأنت تستشير فى جو من الرفق والعفو والمغفرة . . والله يتولاك والمؤمنين بالنصر والتأييد ، فاعتمدوا عليه . وأقبلوا على التنفيذ ، بقلوب مؤمنة وعقول واعية . . فلن يخذل الله قوماً اتخذوا هذا السبيل إلى النصر . . وذلك قول الله تعالى : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون »[2] .

وقد تجلى هذا واضحاً فى الغزوات التالية تعاوناً وتشاوراً ، حتى فتحوا مكة . . فكان درس النكسة انطلاقاً إلى تدعيم الشورى ، وتوثيق الروابط بين قوى المجتمع المؤمن ، على أساس من مستوى أخلاقى رفيع رأينا بعض جوانبه فيما سبق من قول .

---

(١) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٢) سورة آل عمران : ١٦٠ .

٣ – الشهداء بين أحزان الفراق وأفراح الجزاء :

ويأتى بعد هذا جزاء الشهداء . . سبعون شهيداً ضمتهم أرض المعركة . . وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطلب . . آباء وأبناء وأزواج وإخوة . . أجساد طاهرة مزقتها طعنات الغدر حتى كادت أن تخفى ملامحها . . أو اختفت .

فى هؤلاء الأبطال يقول الله تعالى : « ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون»[١].

روى أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة . تأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم (راحتهم وسط النهار) قالوا : من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء فى الجنة، نرزق لئلا يزهدوا الجهاد ولاينكلوا (يجبنوا) عند الحرب : فقال الله سبحانه : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً . . » .

(١) سورة آل عمران : ١٦٩ – ١٧٠ .

يقول الإمام القرطبى[1] : أخبر الله فيها عن الشهداء أنهم أحياء فى الجنة يرزقون . ولا محالة أنهم ماتوا ، وأن أجسادهم فى التراب . وأرواحهم حية كأرواح سائر المؤمنين . فُضِّلوا بالرزق فى الجنة من وقت القتل حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم .

ويذكر القرطبى أن أولياء الشهداء كانوا ، إذا أصابتهم نعمة وسرور ، تحسروا وقالوا : نحن فى النعمة والسرور ، وآباؤنا وإخواننا فى القبور ! ! فأنزل الله هذه الآية تنفيساً عنهم وإخباراً عن حال قتلاهم . .

الشهداء عند ربهم أحياء يرزقون فرحين « يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لايضيع أجر المؤمنين »[2] .

أدعو الله أن يتقبل شهداءنا ، وأن يثبت قلوبنا ، وأن ينزل الصبر والسكينة على أهلنا ، وأن يرزقنا عمق الإيمان ، ووضوح السبيل إلى هدفنا ، فنسير إليه على هدى وبصيرة . وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه ، لانريد به عُلُوًّا فى الأرض ولافساداً ، وإنما الوصول إلى حق آمنابه ، وأداء واجب علينا أن نؤديه ، واسترداداً لوطن سليب ومقدسات مغتصبة .

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئْ لنا من أمرنا رشداً .

---

(١) القرطبى ٤ : ٢٦٨ - ٢٧٦ .

(٢) سورة آل عمران : ١٧١ .



المراجع

١ – القرآن الكريم .

كتب التفسير والأحكام :

٢ – ابن جرير الطبرى : جامع البيان عن تأويل القرآن .
تحقيق ومراجعة محمودمحمد شاكر وأحمد محمد شاكر، ط . المعارف، القاهرة . بدأ صدوره فى عام ١٣٧٤هـ = ١٩٥٥م .

٣ – القرطبي : الجامع لأحكام القرآن – الطبعة الثانية – دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٧٢هـ – ١٩٥٢ م .

٤ – ابن كثير الدمشقى : تفسير القرآن العظيم ، ط . التجارية ، القاهرة (بدون تاريخ) .

٥ – محمد رشيد رضا : تفسير المنار . الطبعة الثالثة ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨ م. م . النار القاهرة .

٦ – يحيى بن آدم : كتاب الخراج . تحقيق أحمد محمد شاكر ط .السلفة بمصر ١٣٤٧ هـ .

كتب التاريخ والجغرافيا :

٧ – ابن جرير الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط . دار المعارف ، القاهرة ، بدأ صدوره عام ١٩٦٠ .

٨ – ابن سعد : الطبقات الكبرى ط . صادر وبيروت ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧م .

٩ – ابن عبد الهادى : العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية . تحقيق محمد حامد الفقى . ط . محمود توفيق . القاهرة ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٨ م .

١٠ – محمود الدرة : تاريخ العرب العسكرى ط . دار الكاتب العربى بيروت ١٩٦٤ .

١١ – محمود شيت خطاب : الرسول القائد . دار القلم . القاهرة – الطبعة الثالثة ١٩٦٤ .

١٢ – المقريزى : إمتاع الأسماع . الجزء الأول . تحقيق محمود محمد شاكر . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤١ .

١٣ – ابن هشام : السيرة النبوية . تحقيق مصطفى السقا وزملائه . ط . مصطفى الحلبى . القاهرة ١٣٥٥هـ = ١٩٣٦م .

١٤ – الواقدى : كتاب المغازى ، تحقيق مارسدن جونس نشر مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٦٦ . ط . دار المعارف بالقاهرة .

١٥ – ياقوت : معجم البلدان . ط . صادر وبيروت ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥م

رقم الإيداع	١٩٨٣/١٨٠٦
الترقيم الدولى	٩٧٧–٠٢–٠٣٢٣–٨ ISBN

١/٨٢/٢٧٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)